مرزوق بن تنباك

حالة المجتمع السعودي وتحولاته

الانتشار العربي

حالة المجتمع السعودي وتحولاته

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

مرزوق بن صنيتان بن تنباك

دار المفردات للنشر – الرياض

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

بسم الله الرحمن الرحيم

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

مُقَدِّمة

في تلافيف الذاكرة الثقافية العربية رصيد عظيم من رواسب الماضي السحيق قبل مئات السنين ومن أعظم الرواسب الثقافية وأبقاها في الذاكرة المعاصرة مفهوم الكسب والامتلاك بالقوة والأخذ ثم الفخر بالحذيَّة والهبة والعطاء على حد وصف الشاعر لممدوحه:

كسوب ومتلاف إذا لا ما سألته تهلل واهتز اهتزاز المهند

والكسوب المتلاف هنا في البيت لابد أن يكون من نخبة المجتمع وسادته والقادرين على الأخذ والعطاء والفزعة للأهل والأصدقاء.

وقد حدثني أحد المعاصرين أنه حضر مجلسا فيه عدد من كبار الموظفين التنفيذيين في الدولة الذين تقاعدوا من العمل واستعادوا الذكريات فمزح أحدهم مع زميل له قائلاً: سرقت الكثير عندما كنت في العمل فانتفض المخاطب غضبا وقال: أنا لا أسرق، أنا آخذ أخذا الذي يسرق أنت وأمثالك. في إطار الفقرة السابقة ستقرأ شيئًا من ذلك الإرث الثقافي وتعرف كيف

www.mtenback.com

تعامـل الناس في مجتمعنا في العصر الحديث مع الإرث الثقافي وزاوجـوا بينه وبين أحـدث النظريات الإداريـة والبيروقراطية ونجحـوا في تكييف النظريات الحديثة في الإدارة لقيم الماضي ومفاهيمـه وفي هذه المجموعة من البحوث والدراسـات التي تناولت بنية المجتمع السـعودي في صميم تكوينه ستجد دليل القـدرة والمهارة على تكييف الحاضر لعلاقات الماضي وهي بحوث بعضها نشر في كتاب قبل اليوم، وبعضها قدم لمؤتمرات ونـدوات دعت لها ضرورة قياس توجه المجتمع العام ورصد تطوره وحراكه داخل دائـرة بنائه التقليدي والمتجدد، وهي في حقيقتهـا حصيلة ملاحظات متأنية رصـدت تغيرات المجتمع السـعودي خلال أربعين سـنة مضـت، حيث تعرضـت البلاد والمجتمع فيهـا لطفرات قوية مادية وثقافيـة واجتماعية مهمة ومؤثـرة في كل المجـالات الاجتماعيـة والسياسـية والفكرية والدينيـة، وتفاعلـت تياراتـه مع ما حـدث في داخـل تركيبتها التقليدية الصلبة وتلك التي حاولت أن تواكب الحداثة المرنة، وقـد حاولت هذه البحـوث رصد ما طرأ مـن متغيرات عميقة وجذريـة في بنيتـه وتكوينـه الفكـري، واسـتنطقت أراءه ولـم

www.mtenback.com

تجامـل كثيـراً في عرض ما وصلـت إليه من نتائـج مهما كانت درجـة اعتدالهـا أو تطرفها وظهورها على سـطح الواقع الذي عاش فيه الناس ولا زالوا يعيشون فيه.

وإنمـا جسـدت الواقـع بأبعـاده كمـا هـو دون تدخـل أو مجاملـة. وموجب نشـرها في هذا الوقت هو أن نضع الشـباب اليـوم في دائرة المجتمع بالأمـس القريب كما هو بالكيفية التي كان عليها وليس كما نود أن نسمع أو أن نرى بعد ذلك.

لعل في قراءتها ما يحفز جيل الشـباب إلى تمثل قيم العدل والمسـاواة في الحقوق والواجبات في إطار مفهوم المواطنة في الوطن وتجسيدها في المشاعر والتعامل بين الناس.

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الانتماء الوطني[1]
دراسة للحالة السعودية

نحاول بيان هذا المصطلح الذي أصبح مفهوماً عاماً في الأدبيات المعاصرة للأمم للشعوب وللأفراد والجماعات، ونجتهد في تحديد معاني الانتماء والهوية ومرادفاتها التي تعني الانتماء بمعناه الواسع والانقطاع إلى دلالة تحدد معنى المواطنة والهوية وكلها لها من الدلالات ما يوحد معانيها حين ترتبط بقيم اعتبارية واجتماعية، معترف بوجودها ومقدر الانتماء لها والاتصاف بصفاتها، وقد تتسع مساحة الانتماء لتشمل الثقافة وغيرها من محددات الشخصية الإنسانية وبالتالي يتبلور مفهوم الانتماء من جميع العناصر والمكونات التي تخلق في نهاية المطاف شخصية المرء المتزن وتعبر عن ذات سوية تؤمن بحقوق المواطنة الكاملة لكل فرد في المجتمع على ثلاث مقومات أساسية « الجماعة البشرية المتحدة بالتعاقد، والأرض التي تعيش الجماعة داخل حدودها، والهوية السياسية والقانونية التي تعرف بها الجماعة

(١) قدمت هذه الورقة لجلسات مركز الحوار الوطني.

www.mtenback.com

نفسها تجاه الهويات الأخرى»[1].

وقد تتعدد الانتماءات فهناك الانتماء الوطني الشامل وهناك الانتماء الثقافي والانتماء الاجتماعي والثنائيات الأخرى مهما تعـددت، وكل ذلك يجمعـه جامع واحد هـو الانتماء للوطن في الدرجـة الأولـى وللهويـة الثقافيـة بعـد ذلك، وهمـا مناط التكليـف. ولأن وظيفـة الهويـة الوطنية هـدف كل المهتمين بمسـتقبل الأمـة فقـد قامـت النظريـات التربوية والدراسـات الاجتماعيـة علـى تحديد العوامـل المؤثرة في خلق شـخصية الإنسـان وبنائها وثبات مبادئه وتحديـد علاقته في ما حوله وما يحيط به ووضعت متغيـرات الحياة وثوابتها في ميدان الإدراك المبكر للإنسان وتأصيل ذاته، ولاشك أن تميز الانتماء هو أهم ما عملت النظريات التربوية الحديثة على تعميقه والاهتمام به. وتحققـت الهوية في زمننا الحاضر بالمواطنة والانتماء الوطني للإنسـان في ثقافته وحقوقـه وواجباته وأصالته معرفـًا انتسـابه إلى الوطن أكثر مما يعرف نفسه بالنسب أو المذهب، أو الدين

(١) التربية على المواطنة وشروطها في الدول المتجهة نحو الديمقراطية. أدونيس العكره، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى،٢٠٠٧م.

www.mtenback.com

والعرق، وقد أصبحت مرتكزات الهوية على المواطنة وهي العنوان الذي يعتمده التعريف بالإنسان والتحديد لشخصيته وملامح حياته ونسبته إلى الوطن الذي ينتمي إليه ويسكنه. وإذا كانت الهوية والمواطنة والانتماء من باب المعاني المترادفة في كثير من الحالات وأن التمييز بين هذه المسميات قد لا يكون واضحاً لدى عامة الناس بل يكاد أن يكون كذلك حتى لدى خاصتهم إلا أن كثرة استعمال هذه المفردات في حياتنا المعاصرة أعطاها معنى الاتصال والألفة وحدد دلالتها في أذهان الناس، لم نصل إلى مرحلة التأصيل الصارم لما نعنيه عندما نطلق كلمة المواطنة أو الهوية الوطنية. وفكرنا التراثي لا يحمل معاني هذه المفردات بدلالتها الحاضرة لكنه كان يحمل معناها الاجتماعي بمفردات أخرى قد لا تبعد عنها كل البعد، ولعل أول من أشار إلى معنى المواطنة والهوية الجهوية بدل الهوية العشائرية والنسبية في تاريخنا القديم وثقافتنا العربية هو الأحنف بن قيس الذي أعطى المواطنة حقها الذي تحاول الثقافة المعاصرة أن تعطيه لها، فأشار في كلمة مأثورة له إلى حقوق المواطنة قبل حقوق الانتماء القبلي والعشائري حين

www.mtenback.com

خطب في أهـل البصرة فقال: والله لأزد البصـرة أحب إلينا من تميم الكوفة ولأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشام»[1].

إذن معنـى الهوية الوطنية قديم في الثقافات الإنسـانية وإن كان مسـماها محدثـًا في عصرنا الحاضر معرفـًا تعريفـًا عالميـًا أو شبه عالمي وحقيقته الحاضرة ارتباط الإنسان بالأرض التي يعيش عليها أو يولد فيها مع الدلالة السياسـية والمحيط الذي تحكمه أنظمة أو اتحادات دولية ووطنية تجاوز كل الاعتبارات القديمـة كالعرق واللغة والدين والجنس إلى صهر كل تلك في معنـى واحد هو المواطنة والانتماء لها دون غيرها من الروابط الاجتماعيـة والثقافيـة وغيـر ذلـك. فالمواطنـة والانتمـاء في العصـر الحاضـر رابط قانوني ومعنـوي يلغي كل مـا عداه من صور الانتسـاب والانتماء وكل الروابط غير رابطة الهوية التي تترجمها المواطنة المعاصرة لا اعتبار لها.

الهوية الوطنية والانتماء:

دراسة الحالة في المملكة.

بدأ العصـر الحديث والحضـارة المدنية بالهويـة الوطنية

(١) انظر خطبته في كتاب البيان والتبيين.

www.mtenback.com

الخاصة التي تحقق الانتماء لسكان كل دولة باعتبار وحدتها السياسية واجتماع سكانها في كيان مستقل واحد وإن تعددت ثقافاتهم ولغاتهم وجنسياتهم وأديانهم وقد اهتم المربون واهتمت المناهج التي تعد لتربية النشء بإبراز الجانب المعرفي والوجداني لتعميق الانتماء للهوية الوطنية وترسيخها في أفكار الشباب وتأصيل دلالتها وإيضاح الجوانب المشرقة التي يتجاوز بها الإنسان انتماءاته وصلاته الاجتماعية والثقافية وغيرها من الروابط إلى رابطة عامة شاملة كاملة جامعة تلك هي هوية المواطنة بكل ما تعنيه من معاني، وما تدل عليه من حقوق وواجبات.

والمملكة العربية السعودية مثل كل الدول والأقطار اهتمت اهتماماً كبيراً بتأسيس بنية الانتماء للهوية العامة « المواطنة « التي تجمع كل المواطنين في مجال الانتماء الواسع والمدلول المدرك للهوية المعبرة عن المجتمع. وكان المربون والمهتمون بالشأن العام يعلمون علم اليقين واقع سكان المملكة قبل التوحيد السياسي للوطن الكبير ويعلمون التكوينات والولاءات واختلاف العادات والثقافات وهو

www.mtenback.com

أمـر معلـوم بالضرورة، وقد قامـت المملكة وتجـاوزت هذه الثنائيـات ردحـًا من الزمن لأن الوعـي الكامل بأهمية الانتماء للهوية الوطنية كان حاضراً في الأذهان بعد مرحلة من التشـتت التـي مـرت بظـروف صعبة انتهـت بنهاية سـعيدة وهـي نهاية التشـرذم والاختلاف وبداية الاجتماع بالوطن وانتساب أبنائه إلـى المواطنة والتزامهـم بآدابها وحقوقهـا وواجباتها. من هنا نتفق عنـد المعنى الحاضر للمواطنة وعلاقتهـا في بنيان الهوية المستقبلية والمتغيرات الحادثة في الحياة والسلوك الاجتماعي الذي يعيشـه الناس في المملكـة باعتباره الجامـع الموحد مع اعتبار متغيرات العصر الحاضر ومؤثراته المادية والاجتماعية والثقافيـة، وهي العناصـر الحية في تنمية ثقافة الإنسـان وتربية سـلوكه الذي يعمق في وجدانه قيمـًا تحترمها الأجيال وتنميها الأمـم في كل مجـالات الحيـاة ومتطلبات الاجتماع البشـري الذي يعيش على أديـم الأرض الجامعة لهم. وعلى هذا يقول المهتمـون في الدراسـات الاجتماعيـة أن الإنسـان (يحيى في بيئـة ذات بعدين أولهما بيئة جغرافية أو مـا يطلق عليها أحيانـًا البيئة الطبيعية التي تشمل جميع الظواهر التي ليست بالأساس

www.mtenback.com

من صنـع الإنسـان كالأرض والمناخ والتضاريـس وما إليها. وثانيهمـا البيئـة الثقافية التي تتضمن جميـع المؤثرات الثقافية التـي يتعرض لها الإنسـان في المجتمع، ويكشـف لنـا التاريخ أن الإنسـان ابتـدع البيئـة الثانيـة لمواجهة بعض ظواهـر البيئة الأولى)[1].

ولأن الإنسـان في طبيعة تكوينه يتعرض للمؤثرات في بيئته ويتفاعل معها في تقبل سريع لما يواجه من متغيرات بالقبول أو الرفض حسب الواقع الذي يعيش فيه والثقافة التي تعرض فيها هذه المتغيرات المتسـارعة مع اعتبار نموه واكتسـابه المعرفي وهو في كل الأحوال سـريع التغير أكثر من غيره، وقد تعرضت بعـض الدراسـات لرصد القيم لدى الإنسـان في سـن الطفولة المبكـرة وحتـى آخر عمـره وقد لاحظـت هذه الدراسـات « بعامـة أهمية الفصل بين الأحكام الأخلاقية المرتبطة بالجانب الاجتماعـي وبين الأحـكام الأخلاقية المرتبطـة بالمثل العليا فالأحكام في الأولى لا تصدر بناء على وجود سـلطة أو عقاب

(١) ثقافـة الأطفـال، هـادي نعمـان الهيتـي، ٣٧، عالـم المعرفة، رجـب ١٤٠٨هـ مارس ١٩٨٨م.

www.mtenback.com

بـل تصدر بناء علـى العرف والتقاليـد، أما الأحـكام في الثانية فتنبع من القيم العليا التي يحددها الضمير»[1].

كما لاحظت الدراسـة أن هناك نسـقًا لاكتشاف الأحكام الأخلاقيـة المرتبـة بالجانب الاجتماعـي في مراحل العمر من ٧-١٨ ... وفي إطـار التمييز بيـن الأوامر الأخلاقية التي يكون الحكـم فيها على أسـاس الضرر الذي يلحـق بالآخرين نتيجة القيام بفعل معين»[2].

وبمـا أن المتغيـرات في هـذا الوقت هي شـديدة السـرعة وحاضرة في أذهان الناس ومتوفرة وسائلها وأهم تلك الوسائل هي الانتشـار الكبيـر لمصادر المعرفة والإطلاع على وسـائل مثـل الإنترنت والفضائيات وسـرعة انتقـال المعلومة وتكرار الأحـداث أمـام الأجيـال الذيـن يواجهـون هـذه المعلومات والتدفـق المرئي والمسـموع بعقـول قابلة للتأثر السـريع، لذا كان لزامـًا على المجتمعـات مواجهة هذه الثقافـات المتغيرة ومحاولة ترسـيخ ثوابت المجتمع والحفاظ على قيمه في نسق

(١) ارتقاء القيم، عبداللطيف خليفة، ١١٤.

(٢) انظر ارتقاء القيم، ١١٥.

www.mtenback.com

اجتماعـي يتوفر فيه الضابط الأخلاقي حين يتعرض المرء إلى الجانب المحايد « على هذا الأسـاس يمتص الإنسان.. أنماط السـلوك المختلفة السـائدة في المجتمع، لذا فإنـه لو عزل عن الثقافـة لاتبـع سـلوكـًا مختلفـًا يمكـن أن يوصف بأنه سـاذج وبدائـي،،، والسـلوك في مجملـه لا يخضـع في الغالب للعقل قدر خضوع العقل للمعايير الثقافية، حيث إن الأشياء والمعاني تفقـد دلالتها خارج إطارهـا الثقافي ولذا يقـال: إن الثقافة هي نظرية في السلوك أكثر من كونها نظرية في المعرفة»[1].

ولأن هذه المرحلة هي مرحلة مر بها كل إنسان في الوجود وعليهـا تقوم تطلعات المجتمع و تنبؤات مسـتقبله وقد اعتمد الدارسون على تقويم النتائج التي تترتب على ما يقدم للإنسان من ثقافة البيئة المحيطة به والتعليم الذي يتلقاه في ذلك المحيط الاجتماعـي وتلك البيئة الحاضنة لنشـاطه وتفكيره وتصوراته للمعاني والقيم التي يربى عليها.

دراسة الحالة في السعودية:

إن دراسـة الحالـة في المملكـة العربيـة السـعودية هي ما

(١) ثقافة الطفل، ٤٣.

www.mtenback.com

ستدور حوله هذه الورقة ولو باختصار شديد حتى نخلص إلى ماهية المواطنة التي نسـعى جميعـاً في كل مجالات اهتماماتنا إلى تحقيق الحد الأدنى من شـروطها والانتماء إليها. وعندئذ نتعرض لحياة الإنسـان وصلته بالهوية التي تحقق ذاته وتشعره بوجـوده في المجتمـع حيث يعيـش كامل المسـؤولية واضح التوجيه سـليم الانتمـاء موحد الـذات الفاعلـة في حياته حتى يقوم بمسـئوليته فرداً في جماعة أو أمة تحدد شخصيتها ملامح واضحة للهوية التي تشركه بحقه مع كل مواطن في أرضه يعيش معه ويشاركه الآمال والرغائب بإحساس وطني واحد.

قبل عصر الدولة:

لقـد كانت المملكـة قبل توحيدها بل إن شـئت قبل عصر الدولة الحديثة مكونة من كـم كبير من الولاءات والانتماءات على مسـاحة واسـعة من الأرض بـل على قارة كاملـة تتكون من قبائـل وأقاليم وإمارات ومدن وقـرى يجمعها رابط واحد هـو العروبـة والإسـلام وتفرقهـا بواعـث كثيرة مـن الرغبات والـولاءات والطموحـات وتتقسـمها الـدول والإمـارات والعشائر والجماعات.

www.mtenback.com

كل ذلـك كان علـى أديم الأرض التي هـي اليوم المملكة العربيـة السـعودية قبـل توحيدها على يـد الملـك عبدالعزيز بن سـعود. كان مـا قبل عصر الدولة في الجزيرة العربية واسـع الانتمـاءات كثيـر الـتردد في ولاءاته بين الإقليـم والقبيلة وبين الأسرة والقرية وما إن اجتمعت الكلمة وقامت وحدة المملكة العربية السعودية حتى شع أمل جديد مع عصر جديد هو عصر الدولة التي تصهر كل ما سـبقت الإشـارة إليه من تقسـيمات، وتضع مع سور الوحدة السياسية سور الوحدة الوطنية وتستبدل المواطنة وحقوقها بصور التشـرذم والتفرق والاختلاف، وقد كانـت البدايـة في قمة الوعـي لهذا الأمل الجديـد أمل الوحدة المنصهـرة في كل معاني الانصهار وأمل الانتماء الكامل لمعنى واحـد ومسـمى واحد هو معنى الوطنية ومسـماها. وقد سـار الأمر في أول عهد الوحدة سيراً حسنـًا في تنمية شعور المواطنة وإحلاله محـل الصدارة في كل المعامـلات والتعاملات حتى كادت أن تمحـى كل مفاهيـم الماضـي وانتماءاتـه وأن يكون الجميـع أمام توصيف جديد وهويـة معتبرة هي وصف الوطن وهويتـه التي هـي المواطنة. ولعل أبرز مثال علـى ذلك ما قام

www.mtenback.com

به الملك المؤسـس في أول سـنيات حكمـه عندما تخلص من آثـار العصبيات والتصدعـات الاجتماعية وأقدم ببسـالة على حل الجيـش الذي وحـد المملكة والـذي كان في جل تنظيمه عشـائري المنزع والتكوين وأحل محله جيشـاً وطنيـاً لا ينتمي إلى أيدولوجيا فكرية ولا روابط قبلية وجهوية وإقليمية بل كان البـاب مفتوحـاً لـكل أبناء الوطن على أسـاس الوطن للجميع وأساس المساواة بين كل الفعاليات دون استثناء.

هذه هي الصورة الأولى لنشـأة الدولة وشـروط المواطنة التي سـعت إلـى تحقيقها لـكل أبنائها ولكل مـن يحمل هوية الوطن الجامع ويشـعر بالانتماء إليه. **وكان** الأمل كبيراً في نمو تلـك التجربة الحضارية المبكرة لاسـيمـاً أنها بـدأت مع بداية عصر انتشـار التعليم واتساع مساحته على أرض المملكة وهو النتيجة الضرورية والمتوقعة لدفـع مفهوم المواطنة وتقاليدها إلـى الأمـام مع جيل مـن المتعلميـن وصفوة المثقفيـن الذين نالـوا من العلوم والمعـارف ما يتحقق بمثله مشـاركات فاعلة ومضمونـة النتائج في تسـريع الوعي الاجتماعي والسـير نحو هوية واحدة لا تختلف ولا تتعدد فيها الاتجاهات والولاءات.

www.mtenback.com

قفـز التعليـم في كل مراحلـه وفي جميـع مناطـق المملكة وأصبح الجيل الذي يخرج من مؤسسـات التعليم يحمل هوية الوطـن وينتمـي إليه في ظاهـر العلاقـة العامة التـي يظهر فيها ويتعامل الناس بها أيضـًا إلا أن الانحياز إلى العصبية الإقليمية والمناطقية كانت هي البارزة في التعامل.

مضـى ثلاثون عامـًا منذ بدء الوحدة والصورة الظاهرة هي الولاء للهويـة والمواطنة ومع انتقـال المجتمع كله من القرى والأرياف وهجرتـه الداخلية إلى المدن والاسـتقرار فيها كان المأمـول أن يزيد الانصهـار الاجتماعي بزيادة الاسـتيطان في المدن وأن تكون المدينة الحديثة التي اكتظت بهؤلاء القادمين من كل القـرى والأرياف والبوادي هي بوتقـة الصهر الطبيعي لهويـة واحدة غير متعددة وإنعاش اللحمة والسـدى التي ينمو بهـا مجتمع مدني تقوم صلاته وانتماءاته على الانتسـاب لهوية واحـدة وهي الهويـة الوطنية، هـذا هو المأمـول والمتوقع إلا أن التكـدس السـكاني الكبيـر في المـدن وانجـذاب الأطراف والأرياف للحواضر والتوسـع الكبير في ذلـك نقل معه صورة الحيـاة القديمـة التي كانت سـائدة قبل وحـدة الدولة وأصبح

www.mtenback.com

التعليـم والاتصال بين الناس شـكلاً ظاهريـاً لا يحقق وحدة وطنيـة صحيحـة ولا يبنـي هويـة مدنيـة مشـتركة تقضي على رواسب الماضي البعيد الذي كانت الذاكرة الإنسانية مشبعة به منـذ القدم فحملت المدينة الحديثة والثقافة في تلافيفها ماضي الإقليمية والعشـائرية، ولكن بأسـلوب جديد منظم ومختلف عـن ذاك الذي كان سـائداً في الماضي قبل عصـر الدولة، وإن كان يحمـل معنى ذلك الماضي وأسـلوبه مع اختلاف الحال بين ذاك الماضي البعيد وهذا الحاضر المختلف.

نشـأ عن هذه الحال ازدواج في المفاهيم الوطنية والحقوق المشتركة مما أضعف الانتماء للهوية الواحدة وعزز الانتماءات القديمـة التي كانـت معهودة لسـكان الجزيرة العربيـة قبل أن تحمل اسـمها الجديد الوحدوي « المملكة العربية السعودية» وكان الحافز على الانفصام الوحدوي في الهوية هو شـعور كل فئة من فئات المجتمع أن لها من الماضي الذي تحفظه الذاكرة شـيئاً مختلفاً عما يراد لها من متغير تحمله مضامين المواطنة الحادثة في ثقافة المدينة العصرية والهوية السياسية.

www.mtenback.com

الثقافة والهوية:

جاء التعليم والأمل فيه وعليه كبير ومجال التعليم ومحوره هو الإنسان منذ ولادته إلى سن الرشد وسنناقش مسؤولية التعليم المنتظم ومسؤولية البيئة الحاضنة لتنمية مشروع الهوية والمواطنة وتحقيق آلياته ومدى النجاح أو الإخفاق الذي تحقق في هذا الامتداد الزمني الذي قطعته الوحدة السياسية للمملكة، وهو امتداد زمني كاف لتبلور نموذج يمكن قياسه والحكم عليه فقد قطعت الوحدة السياسية مرحلة تقرب من **ثمانين عامًا** صحبها **أولاً**» تطور كبير في العدد السكاني **وثانيًا**: ثورة ديمغرافية لم تحدث في أي بلد في العالم، ومعها ثروة اقتصادية لم تعرفها دولة معاصرة، **وثالثًا**: صحب ذلك امتداد أفقي ورأسي للتعليم المنتظم وتعددت أغراضه ووظائفه، وكل ذلك يوحي بنمو كامل لشعور الناس بالهوية المشتركة والإيمان بالانتقال من صور الانتماءات القديمة إلى ممارسة المشترك من الآمال المستقبلية في وطن يحقق طموحات أبنائه ورغباتهم ولاسيما أن نسبة عالية من عدد سكانه هم من فئة عمرية لم تتجاوز مرحلة الطفولة ونسبة عمرية أخرى أكثر

www.mtenback.com

عدداً تجاوزت سن الطفولة إلى مرحلة الشباب المبكر والصبا المتوثب للجديد من الحياة.

وقد دلت الإحصاءات الرسمية أن ثمانين بالمئة من سكان المملكـة هم من هاتين الفئتين العمريتين المشـار إليهما وهما مرحلـة عمرية لا يحظى بها إلا النادر والقليل من الدول. وهي ترتب أعباء ثقيلة بقدر ما تكون أملاً لحياة كريمة منتجة مثمرة.

ولأن القناعة بالهوية الشاملة والتعلق بها واحترام مقتضياتها يحتاج إلى عاملين رئيسين: **الأول**: تربية وتعليم يحققان ثوابت الإيمان بأهمية المواطنة والهوية.

الثاني: شـعور جماعـي بأهميـة أن يكون الإنسـان منتميـاً لهويـة جامعة يقـف الجميع أمامها بالسـوية بينهـم مما يجعل هـذا المبدأ في المسـاواة قيمة بحد ذاتها معبرة عـن المرء ذاته، غير منحازة إلى طرف دون آخر مع سـلامة التقدير الذي يحدد ماهية الهوية الوطنية أو إن شـئت فقل الانتماء الوطني الواسع الـذي تتعدد أغراضه وتلتقي في بؤرة الهوية الوطنية المشـتركة القادرة والمنصفة لكل المنتمين إليها والعادلة بينهم في الحقوق والواجبات.

www.mtenback.com

أما إذا نظرنا إلى الواقع الذي أفرزته المحددات التي مضى الحديث عنها فإننا نجد أن الهوية لدى جيل الشباب ليست معطى ناجزاً ومحدداً ولكنه تصور لعلاقات مشتركة يتقاطع بعضها مع بعض، وسبب هذا التقاطع هو عجز التعليم والتربية الحديثة عن الحسم في قضية الهوية والتغلب على التراكم الثقافي الماضي الذي تحمله العلاقات والخصوصيات والثقافات المتشبعة بالتراكم الهائل من الثنائيات والتقابلات وكل تلك الانتماءات الماضية تتقاطع مع كينونة الهوية الوطنية الحادثة والذات الواحدة التي لا تتعدد، لقد جاءت مخرجات التعليم عندنا بعكس المأمول منه فأصبح التجمع في المدارس العامة والخاصة والجامعات يلقن طلابه صوراً لانتماءات ليست الهوية واحدة من مفرداتها وصار الطالب يذهب إلى مدرسته فيعود إلى البيت يحمل أسئلة كثيرة لم تثرها في ذهنه إلا مؤسسته التعليمية وزملاؤه في الدراسة ولعل من الأسئلة التي تبادرك عند كل طالب بعد لقائه بقرنائه ومعلميه والوسط الجديد الذي دخل إليه هو هذا السؤال: عن نسبه وحسبه من أي منطقة هو ومن أي قرية جاء أهله وإلى أي قبيلة تنتمي

www.mtenback.com

أسـرته وبأي رأي يقر وعلى أي مذهب يقرأ. كل هذه الأسـئلة ومثلها معها مما لم نذكره بدأ أطفالنا الذين نوجههم للتعليم في كل مراحله يهتمون بها، ويسـألون عنها قبل أن يسأل أحد منهم عن هويته المشـتركة مع الآخرين أو ما يجمعه مع هؤلاء القوم الذيـن تجمعهم المواطنة وتربط بينهـم الهوية. وليس ما يميزه عنهم ويفرقه من جماعتهم.

قبـل ثلاثيـن عامـاً من اليوم لـم تجد من يسـأل عن مثل هذه الأسـئلة وليس هناك من يجيب عنها لو سئلت كان الناس يعرفون هذه الانتماءات وهذه الثنائيات والصلات لكنهم كانوا يتجاوزونها إلى مشـترك الهوية ولو سـأل أحد عن إجابة لتلك الأسـئلة لكان الرد عند الكثير من الناس الاستغراب والإنكار. أما اليوم فقد أصبح السـؤال الملـح هو هذا المعنى وأصبحت الإجابـة الجاهـزة التـي يجيـب بهـا المسـؤول هي شـوفونية مفرطـة في كل المعاني والدلالات كرسـت الثنائيات واهتمت بهـا وأصلت معناها مما ألحق شـيئـاً كثيراً مـن الغبش الذهني والالتبـاس في معنى الهوية العامة والانتماءات الخاصة. بل إن التجمع السكاني في المدن الكبيرة ووجود الكثافة السكانية التي

www.mtenback.com

تحولت إلى مرتكزات فاعلة في كثير من الأنماط السلوكية التي يتعامـل بها هذا التجمع على أنها دالة لما يتمثله الأفراد من قيم يرونهـا جديرة باهتمام العامة واسـتجابتهم لما يميلون إليه من ميول ثقافيـة بيئية تحفزها الدوافع الذاتية التي تبتعد بالإنسـان عـن هويته الوطنية إلى انتمائه الفئوي أو القبلي أو الإقليمي بل حتى الأسري والمذهبي.

السـؤال:

يحسن أن نسأل سـؤالاً مشروعـاً على كل حال وهو لماذا تقدمنـا في كل شـيء في التعليـم وفي الاقتصاد والنمو السـكاني الكبيـر والتجمـع في مدن تضم كل الطوائـف وكل الفعاليات الاجتماعيـة ومـا يترتـب على هـذا التجمع من روابـط حادثة وصـلات متوقعـة ممـن يضمهـم المـكان ويجمعهـم الإطار السياسي القائم ومع كل ذلك كان الانتقاض على لوازم الهوية وحقوقها هـو الظاهرة البـارزة حيث ظهـرت العصبيات على كل مسـتوياتها وبرزت الولاءات لغير الهوية الوطنية، وانتشـر في جميع المدن والقرى والأقاليـم الاهتمام الجلي بالمصالح الذاتيـة والنفعيـة ممـا جعل ظاهـرة التحدي للهوية وشـروط

www.mtenback.com

وجودهـا بـارزة في ممارسـات النخـب الاجتماعيـة على كل مسـتوياتها وعلى كل نماذجها. لا شك أن مجمل هذه الأسئلة سـتثير إشـكالات كثيرة تعيدنا إلى قراءة متأنيـة وفاحصة لنوع الحـراك الاجتماعـي الذي سـار بنا بعيـداً عن الهـدف الأول للمواطنـة الحقيقة إلى أهداف متشـعبة كثيرة الفروع وشـائكة الأغصـان، ندرك بعضها ونعجـز عن إدراك الكثير من أسـرار الانتكاس الذي تعيشه علاقتنا بالهوية الوطنية الجامعة.

وهنـا لابد من محاولة تفسـير الظواهر وتلمس الأسـباب التـي حدت بنا إلى هذه الحال التي نعيشـها ونتأمل في أسـبابها ولا نجـد تبريـراً معقـولاً يمكن أن نركـن إليه. لكـن لابد من دراسة لواقعنا في كل أبعاده ومقتضيات لوازمه.

وأول مـا يبـادر به إلـى الإجابة ولو كانت ظنيـة هو أننا مع بداية وحدتنا السياسـية كنا نعول على مؤسسـات مدنية نعدها نـواة لنخبـة من أبنـاء الوطن الذيـن يعهد في مثلهـم أن تتأصل في ممارسـتهم وسـلوكياتهم الهويـة الوطنية المسـتقلة عن كل سـلبيات حياتنا الاجتماعية والسياسـية والثقافية التي سـبقت عصـر الوحـدة والدولـة، وكانت تلك المؤسسـات الرسـمية

www.mtenback.com

والنخـب الفاعلة فيهـا تظهر بمظهر الملتـزم بحقوق المواطنة وتعميق الإيمان بالهوية المشـتركة وتأصيـل حقوقها ودلالتها ومقتضيات وجودها « لأن المؤسسات الوطنية – الأهلية منها والرسمية – هي التمظهر الحي الفاعل للوطن ومن ثم المحك الذي تتجلى فيه حقوق المواطنة وواجباتها، فقد عمدت جميع الـدول إلى تمـدن هذه المؤسسـات، وذلك عبر رؤيـة قانونية وتنظيمية، تحفـظ للجميع» المواطنين، المسـاواة في التعاطي معها وحرصت على أن تتجنب أي صيغة قد تسـتخدم للتمييز بين المواطنين على أساس الانتماءات الأخرى[1].

تلـك الصورة التي رسـمها الذهن للمؤسسـات وللنخب التي بدأت مرحلة البناء والأساس الذي قامت عليه وحدة الأمة إلا أن هذا المثال لم يكن كما هو معهود ومقدر له حين تتجلى فيـه الثوابـت للوطن وحقوق أهله فقد دخلت المؤسسـات في عصر مبكر من وجودها في دائرة الصراع الخفي على المصالح الذاتية البعيدة كل البعد عن المواطنة وعن مسـتلزمات الهوية ودخلت النخب التنفيذية منذ وقت مبكر في عصر المؤسسات

(١) المواطنة والوحدة الوطنية، محمد محفوظ وآخرين، ١١٤.

www.mtenback.com

الرسـمية إلى مضايـق التمييز بين المواطنين مـن حيث الهوية وأصالـة الانتماء وتمثل ذلـك في صراع المصالـح وتعارضها وادعـاء الحق في الهويـة **الكاملة لنخبة مـن النخب وفي الهوية الأقـل لنخب أخرى وارتكـزت** تلك الدعـاوى على موروث شـعبي تحملـه خلفية اجتماعيـة معطلة للحاضر الذي يعيشـه النـاس متصلة بالماضي الذي انقطع العمل به بعد قيام الوحدة الوطنيـة وقيـام الدولـة المدنية. ومـن هنا نشـأت أول مراتب الضعـف في بناء الهويـة الكاملة لدى فئة ما أو قطاع ما، وقام في ظل المصالح والانتماءات والولاءات انحياز للأسـر الصغيرة وللقريـة والإقليـم وأفسـد الصراع علـى المصالح بنـاء هوية وطنية مؤثرة لأن أقطاب المصالح الذين يلوذون بها وعصبيات المنافع التي يحافظون عليها كانت هي الملاذ للمرء عندما يريد أن يحقـق ذاته ومنافعه. فحلت العصبية محـل الهوية الوطنية ممـا نتج عنه غيـاب الكفاءة، ومن ثم وقـوع الأخطاء في الأداء الوظيفي والتقصير وعدم محاسـبة المقصر، وتدافعت أقطاب التأثير والقوة بين الحالتين.

www.mtenback.com

العودة إلى ما قبل الدولة:

ولأن النخب التي فازت بحظها من القوة البيروقراطية وتمكنت من وضع أقدامها على قمة هرم المسؤولية الاجتماعية والتنفيذية لم تنس التركيبة العشائرية التي كانت سائدة قبل عصر الدولة فاسترجعت تلك النخب موجباتها وقوانينها الاجتماعية وحتمية قبولها وأسرفت في تمثيل الماضي العشائري والإقليمي والمناطقي في الحاضر المدني. وهنا سيكون الإلمام بظاهرة ضعف الهوية لدى الشباب والإشارة إلى أسباب هذا الضعف حين تجمع خيوط القضية التي نناقش أبعادها الوطنية والاجتماعية حتى تكون الصورة أكثر وضوحاً وبياناً للأسباب التي جعلت الناس يشعرون شعوراً مراً بالجفاف العاطفي نحو الهوية الموحدة ويلتفتون إلى ثنائيات غيرها مررنا على ذكرها في صدر هذا البحث. وحددنا فيها تجربة إنسانية معهودة وهي أن مصدر المعرفة والتربية التي يتلقاها الإنسان من بيئته هي التي تحدد سلوكه وتعمق إيمانه بالقيم الاجتماعية التي يحترمها آباؤه ويقدرون التمسك بها ولأن مرجعيتنا الثقافية التقليدية هي

www.mtenback.com

في عمـوم مدركاتها مرجعيـة تقوم على عمـل العصبية وتعتمد علـى الثنائيـات في الانتمـاء أكثـر مـن اعتمادها على شـمول الهويـة الوطنية فقد تجلى إدراك المفارقة بين الوطنية الشـاملة والعصبيات الخاصة التي تمثل العودة إلى عهد ما قبل الدولة. وقبـل أن نتوجه إلى تأصيـل الانتماء الوطنـي والهوية الوطنية سنذهب إلى ما يزودنا به الثابت من النص المدون الذي سجل الـردة عن قيـم الانتماء للوطـن والهويـات والوطنية في عقول النخبة العليا من المجتمع وليس عامة الناس.

لقـد انبعث في السـنوات القليلة الماضية شـعور قوي إلى العصبيات التي كانت سـائدة قبل قيام الدولة وثارت شـوفونية بغيضـة ارتـدت بالناس عن الهويـة الوطنية فضـلاً عن حقوق المواطنة وواجباتها. ولأن الحديث المجرد قد لا يقبل في عمل يقـدم لمثل **هذا المؤتمر الوطني فإنني سـأضطر** إلى السـباحة في فكرنـا الثقافي المحلي الذي عبر عنه بعضنا فيما نشـر وفيما كتب ولاسـيما في الآونة الأخيرة حتى نتلمـس مواطئ أقدامنا وقـد حلت مواضعات اجتماعية محـل الهوية العامة المحددة لصلات المجتمع بعضه ببعض.

www.mtenback.com

إن شـروط تحقيـق الهوية الوطنية هـو اختيارها واتخاذها بديـلاً عن كل روابط تقوم على المعارضة لها أو التوازي معها والاشـتراك في ماهيتها. أما إن حدث غير ذلك فستكون الهوية منقوصة الجانب لدى الناس وتكون أكثر نقصـاً إذا حل غيرها بديـلاً عنهـا كالعصبيـة النفعيـة أو العصبية القبليـة أو العصبية المذهبيـة أو العصبيـة الفكرية أو العصبيـة الإقليمية والعصبية الأمميـة أو كل عصبيـة تزحزح الهوية عن تفردها واسـتغراقها لوظيفة الانتماء الكامل لها.

لقـد حلت محل الهويـة الوطنية في بلادنـا عصبيات كثيرة كان عشـاقها والمنـادون بهـا والمدافعـون عـن فضائلها عليه القـوم ووجوه المجتمع. فالانتماء للقريـة والإقليم صار هوية لدى البعض يعمل بها وينقطع إليها وهذا نموذج واحد أعرضه من نماذج كثيرة أعرفها وسأتعرض فيما يأتي للقليل منها. يقول أحد الأعلام واصفـاً قريته وأهلها:

« وإضافة إلى مركز .. التجاري فهي مقر مجتمع حضاري غالـب أهله ينتسـبون إلـى زيـد القضاعي القحطـاني، ومن لا ينتسـب إلـى زيد فهو ينتسـب إلـى تميـم فكلهم حاضـرة ذو

www.mtenback.com

وأخلاق عربية وسـمات أصلية والتزام شـرعي، فليس سكانها شـتات أجنـاس وإنما هم جنـس واحد يتصـل بقطبي العرب قحطان وعدنان»[1].

هذا النص نشـره كاتبـه في جريدة الاقتصاديـة وهو رجل بلغ الثمانين من العمر ومع ذلك فهو من أهل الفتيا ومن رجال الديـن ومن هيئة كبـار العلماء في المملكة ويشـغل مرتبة وزير ومستشـار في الديـوان الملكـي والمقال طويل شـرق صاحبه وغرب بـه وجعل قريته وأهلها فـوق كل انتماء وأعلى من كل هويـة وطنيـة أو غيرها وهم من قحطـان وعدنان وهم حاضرة وليسـوا بادية وسـماتهم أصيلـة؟؟؟ والتزامهم شـرعي، وهم ليسوا في رأيه شتات أجناس. ولا نعرف معنى ما يقول هنا حتى نعرف سـبب كتابة هذا المقال ذلك أن قريـة مجاورة لقريته لا تبعد عنها أكثر من مئة كيلاً تنازع قريته مكانتها في الإقليم الذي تنتميـان إليه. ولهذا السـبب فقد عـدد علماء قريتـه ووزراءها وتجارهـا مكاثـراً بهـم. وإذا أخذنـا بدلالة المقابلـة في خطابه

(١) جريدة الاقتصادية الشـيخ عبدالله المنيع، العدد ٥١٩٢ في ٢٠/ ١٢/ ١٤٢٨هـ الموافق ٢٩/ ١٢/ ٢٠٠٧م.

www.mtenback.com

وزعمه فكل خصلة لقريته يكون المعنى المقابل أي العكس موجهاً إلى القرية المناوئة لها لا سيما أن كان سكان قريته ليسوا « **شتات أجناس** » بل هم من صلبي عدنان وقحطان على حد زعمه.. فإذا كان هذا رأي رجل دين وفي العمر الذي ذكرته والمكانة العلمية والاجتماعية والرسمية التي يتربع عليها، وكل ذلك لم يشفع لجيرانه ولم يخطر بباله ما نبحث عنه من تربية الهوية الوطنية والانتساب إليها. فالهوية الجامعة في رأيه غير موجودة ولا معتبرة في فهمه للحقوق والواجبات. وسأزيد في هذا المدرج نصاً آخر لرجل دين بحكم مختلف وقد نشر رأيه فقال عن أحد أبناء وطنه وشريكه في الهوية وحتى في الجهوية ما يلي: « وحسن المالكي ليس محايداً ومشهور بعدائه للمذهب السلفي بشكل كبير فكيف تعتمد الكاتبة عليه في نقد مظاهر دينية لا يعلم عنها شيئاً حسن المالكي باعتباره من بيئة أخرى بعيدة عن منطقة نجد»[1].

هذا النص لكاتب من رجال الدين أستاذ في المعهد العالي

(١) ملحق الرسالة، جريدة المدينة الدكتور محمد النجيمي، الجمعة ٣ محرم ١٤٢٩هـ، الموافق ١١ يناير ٢٠٠٨م.

www.mtenback.com

للقضاء وعضو في مجمع الفقه الإسـلامي وكاتب في الصحافة ومتحـدث في الإعـلام، وهـو لا يـرى للكاتـب الـذي ينتقده حقـًا حتـى في التعبير عن رأيـه الفقهي. وعدم أهليته الشـرعية عند الشـيخ جـاء لأنه ليس من أهل نجد، هكـذا يقول الرجل، والغريـب في الأمر أن الشـيخ الكاتب هو نفسـه ليس من أهل نجد وحكمه ينطبق عليه قبل صاحبه، وهو نفسـه يرى أن أهل نجد يظلمونه ويلغون جهوده ولا يهتمون به وبأمثاله من منطقته التـي ينتمي إليها. ولا بأس أن أنقل عن الرجل كلامه الآخر في أهـل نجد الذي يـرى أن مواطنه لا يعتمد عليـه في الفتوى لأنه ليس منهم فيقول مجيبـًا على السؤال التالي:

س: « البعـض يعتقـد أن منطقة الجنوب تخـرج المثقفين أكثر من الإسلاميين لماذا في نظركم»؟

ج: « هذا إلى حد بعيد كلام صحيح، والسبب أن المشايخ وطلبـة العلم الشـرعي لم يُظهروا الملتزمين مـن أبناء المنطقة الجنوبيـة، ولـم يعطوهـا الفرصة في كثيـر من الهيئـات الدينية والشرعية».

www.mtenback.com

س: « يعني تعزوه للمشايخ.

ج: نعم

س: عفواً من تقصد بهؤلاء المشايخ؟

ج: مشايخ أهل نجد وأقولها بمنتهى الصراحة، لم يستطيعوا استيعاب الملتزمين والبارعين من أبناء المنطقة الجنوبية ولم يدخلوهم في المؤسسات الشرعية.

س» عفواً لماذا أهل الجنوب فقط؟!

ج: هو أنا أتكلم عن الجنوب بالذات. ولكن وإلا نفس المشكلة هي في الغربية والشرقية وفي الشمالية، أنا لا أصف هذا أنه حقد ولا شيء، ولكن.

س: قبل لكن في ذلك الوقت أو مازال إلى الآن؟

ج: نعم إلى الآن.

س: يعني لا يريدون إبرازهم مثلاً؟

ج: لا أقول لا يريدون، لكن لا أدري ما هو السبب إنهم لم يبرزوا هو إهمال لكن لا أقول إنه عنصرية أو شيء، لا أستطيع

www.mtenback.com

أن أتهم الناس في أديانهم، لكن أقول

سـؤال: لأنه يهمني، فأنا من أبنـاء المنطقة الجنوبية، لماذا لا يريدون إظهار أبناء المنطقة الجنوبية، وهم بارعون وأساتذة كثر في الكليات الشرعية سواء في أبها أو أم القرى أو في الجامعة الإسـلامية أو في جامعة الإمام أو في جامعة الملك سعود- وفي غالب الجامعات السعودية لماذا لم يظهروهم؟[1].

هـذا رأي رجـل من رجـال الدين لم يشـر به مـن بعيد أو قريـب إلى رابطـة الهوية الوطنية بل أشـار إلى روابـط إقليمية ومذهبيـة وفكرية واعتمد عملها وقيمتهـا الاجتماعية والنفعية أمـا الرابطة الحقوقيـة التي توجبهـا المواطنة فغابـت عنه كما غابت عن سابقه.

رجل دين ثالث عضو في هيئة كبار العلماء وفي هيئة الإفتاء وقـاض سـابق ووكيل لـوزارة العـدل في المملكـة لا يرى أن جزيـرة العرب تحمل التضاد في الألـوان والأعراق والأجناس والسـنح غير العربيـة ويدعو الله أن يصون الجزيرة من سـنحة

(١) مقابلة مع الأستاذ الدكتور محمد النجيمي نشرت في مجلة نون، العدد ٢٢ ربيع الأول ١٤٢٩هـ.

www.mtenback.com

العلـوج والعجم وهذا نص ما قال عفـا الله عنه « وعليه فينبغي سـد منافذ التهجين لأول رائد للإسـلام! العـرق العربي لتبقى سلاسـل النسب صافية من الدخل، وملامح العرب سالمة من سنحة العلوج والعجم، صانها الله من تلكم الأذايا والبلايا.. ولا تكون جزيرة العرب سردابًا للمولد، وألسنة الأعجميين»[1].

هذه النصوص الثلاثـة كتبها كبار رجال الدين الذين يأخذ عنهـم النـاس في المملكة الفتيـا في دينهم ويتبعونهـم في الرأي ويقلدونهـم في العمـل ويأتمـون بهـم، وهـم أي رجـال الدين بعامة يؤصلون سياسـة البلاد التعليمية ويراقبون مناهج التربية والتعليـم وهم الذيـن تحترم آراؤهم وتؤخـذ أقوالهم ويقتدى بهـم، ومع ذلك فلـم تكن الهويـة الوطنية والانتماء شـيئًا مما يرونه أو يدعون إليه كما ظهر ذلك من نصوص أقوالهم.

فإذا أخذنا بالرأي الفقهي الذي عبر عنه هؤلاء الثلاثة نجد ضيمـًا كبيراً للهوية الوطنيـة وتنكراً لحقوق المواطنة من قمة الهـرم الديني. والرأي هذا هو الرأي المعلن وهو موقف ظاهر

(١) خصائـص جزيرة العـرب، ٩٤، بكر بن عبدالله أبو زيد، نشـر دار ابن الجوزية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

www.mtenback.com

الدلالـة علـى أن الهوية الوطنية الجامعة غيـر معترف بها وغير مأخـوذ بلوازمهـا ومقتضاهـا الذي نحـاول البحـث عنه، وما يزيـد الأمر تعقيـداً أن هؤلاء من كبـار فقهاء المذهب السـائد في المملكـة وهـم قد بلغوا مـن العمر عتيـًا وقد كتبـوا آراءهم ونشـروها على الملأ. فلو كانت حديث مجلس لالتمسـنا لهم الأعذار ولقلنا زلة لسان أو خطأ ساعة أو خاطرة مرت ولكنهم نشـروها بروية وأعادوا القول بها ولـم يحدث أن اعتذروا عما قالوا ونشروا.

بل إن أقسى هذا النصوص الثلاثة وأكثرها عنصرية وتمييزاً قد نشر في كتاب وتطوع آخرون بتوزيعه. وقامت وزارة الشؤون الإسـلامية بطبعات إضافية له، ولم يشعر أحد من هؤلاء بأنهم قالوا خطأ أو مارسـوا تحيـزاً لأن هوية المواطنة مغيبة عنهم في تراكـم ثقافي ورثوه عن آبائهم وألبسـوه لباس الفقه الديني وإلا فكيف لرجل مسلم أن يجعل السنح والألوان واللغات معلمـًا دينيـًا ويدعو أن تخلـص جزيرة العرب منهم وهو الذي يعرف جيـداً « لا فضـل لعربي على عجمي إلا بالتقـوى» ويقرأ: « إن أكرمكـم عنـد الله أتقاكم» وكيف يغـض عينيه عـن أبناء وطنه

www.mtenback.com

وحملة هوية المواطنة من الذين لا خيار لهم في لونهم ولا سنحة وجوههم وهو يراهم معه وبين يديه وهو يعرف أن التخلص منهم مستحيل عقلاً وعرفًا وشرعًا. ولكنه يدعو بدعوة جاهلية ويجد من يعاونه وينصره وينشر دعوته ويتقرب بها إلى ربه وتلك هي الأذية والبلية.

وقد استفز هذا الكلام شابًا من أسرة كريمة يشهد لها تاريخها بعروبتها وإسلامها منذ أكثر من ثلاثمئة سنة في منطقة المدينة المنورة فقال رادًا على كلام الشيخ.

« إنتهى كلام الشيخ ولم ينته الألم الذي يصاحب قراءة قول هكذا في زماننا هذا ونحن ندين بديننا هذا. أعتقد أن الشيخ يدين لي باعتذار صريح وواضح ولمن هم أمثالي من غير أصحاب النسب العربي الصافي وإن جرى في روحي ودمي حب العرب ونبي العرب»[1].

الغريب أن هذا الشاب وهو من أسرة عريقة قد ظن إن الشيخ يخرجه من العروبة ولذا كان رده – بهذه اللغة على

(١) جريدة المدينة المنورة أوراق صحفي، جمال خاشقجي، الأحد٩/ ١١/ ١٤٢٣هـ الموافق ١٢/ ١/ ٢٠٠٣م.

www.mtenback.com

هذه الشوفونية الطاغية في خطاب الشيخ – رداً محزنـًا ومصدر الحزن فيه أن يخطر بباله هو وأمثاله من أبناء هذه الأسر العريقة في المواطنـة والانتماء وأن يفكر حتـى ولو للحظة أنه ليس من العـرب. مع أنه من أسـرة من أعرق الأسـر وأقدمها تاريخـًا في منطقـة المدينـة المنورة وليس في المدينة ذاتها فحسـب بل من أسـرته وأهله أعداد وأسـماء عاشـوا في قرى وأريـاف المدينة وفي وادي الفـرع يجري ذكر أسـرته ملاكـًا وسـكانـًا مع قبائل بني عمرو، وهناك وثائق في أسـمائهم وأملاكهم، ولا يمكن أن يعيـش في ذلك الوقت البعيد خارج المدينـة المنورة إلا من له حسب ونسب في القبائل العربية.

وإذا تجاوزنـا رأي أهل الديـن والفقهاء الذين نقلنا بعض أقوالهم سـنعرض بعض المواقـف الاجتماعية حتى نقيس بها قياسـًا قريبـًا من الواقع الذي يصور مدى التزام الناس بالهوية الوطنيـة الموحـدة أو مـدى عودتهـم إلى موروثـات الماضي وتغليبهـم خصوصيـات إقليمية أو اجتماعية أو ثقافية ليتسـنى لـكل ذي عينيـن مـدى مـا وصلنا إليـه بعـد ثمانيـن عامـًا من الوحدة السياسـية والدعوى إلى الهويـة الوطنية والاجتماع في

www.mtenback.com

أمهات المدن لكن ذلك كله لم يزد الناس أو بعض الناس إلا تعلقاً بعصبيات الماضي وانحيازاً لها وبعداً عن الاجتماع المدني، حتى المدينة الواحدة أصبحت علائق سكانها مرتدة إلى ماضيهم البعيد معلنة العودة إليه والانتصار له وهذه إحدى شواهد ما نذهب إليه وهو نص نقدمه معتذرين إلى كل من يتحدثون عن هوية المواطنة وموجباتها. وهو مقدمة لدليل الهاتف الذي ألفه مجموعة من أهل المدينة المنورة شعروا بغربتهم وقلتهم وخافوا عوادي الزمن عليهم فأعلنوا التضامن الإقليمي على «الضراء والسراء» فحشدوا كل طاقاتهم وأصدروا دليلاً للهاتف السعودي يخصهم وحدهم ويجمع كلمتهم ويشعرهم بالاطمئنان لغربتهم عن ديارهم وأوطانهم وسموا أنفسهم المقيمين في المدينة المنورة من أهل نجد وإليكم النص بالحرف الواحد: «الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد فانطلاقاً من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

www.mtenback.com

ولتوحيد أواصر المحبة وتسـهيل سـبيل الاتصال بين الأعزاء في السـراء والضراء فقـد تم إعداد هذا الدليـل الخاص بأهالي « نجد» المقيمين في المدينة المنورة. ونشـكر كل من سـاعدنا على الحصول على أسماء الجماعة وهواتفهم وفي حال إضافة أسـماء جديـدة أو رغبـة في أي تعديـل مسـتقبلاً الرجـاء تعبئة نمـوذج التعديل الـذي برفقة هذا الدليل وإرسـاله إلى العنوان المدون.

نأمـل أن يحوز هذا الجهد المتواضع على رضاكم ونعتذر مقدمـاً عـن أي تقصير سـواء كان ذلك حصول خطـأ في رقم هاتف أو سقوط اسم سهواً أو تقديم أو تأخير في ترتيب العائلة بمشيئة الله سنتلافى ذلك في الطبعات القادمة بالشكل والمظهر الـذي يرضي الجميع. والله أسـأل أن يوفق الجميع إلى سـواء السبيل» [1].

يبقى أن يعـرف القارئ لهذا النـص والمتصفح للدليل أن من بين أسـماء هؤلاء المقيمين بالمدينـة المنورة الذين حمل الدليل أسماءهم معالي أمين المدينة المنورة لمدة ثلاثين عامـاً

(١) مقدمة دليل الهاتف الخاص بأهل نجد المقيمين في المدينة المنورة.

www.mtenback.com

وسـماحة رئيـس المحكمة الشـرعية لمنطقة المدينـة المنورة منـذ الوحدة، ومعالـي وكيل إمارة منطقة المدينـة المنورة منذ تأسـيس الدولة ومعالي مدير الجامعة الإسـلامية منذ إنشـائها ومعالـي نائب رئاسـة الحرمين الشـريفين في المدينـة المنورة منذ تأسـيس الرئاسـة. كل هؤلاء من أصحـاب المعالي حمل الدليـل للمقيمين في المدينـة المنورة أسـماءهم بصفتهم التي وصفهم الدليل بها « أهل نجـد المقيمون في المدينة المنورة». فإذا كان هؤلاء وأسرهم يحسون بالغربة ويحتاجون أن يجدوا من يلجأون إليه «في السراء والضراء» كما ذكروا وهم يزعمون أنهم مقيمون في المدينة وليسوا مواطنين من أهلها وقد أمضوا فيهـا مايزيـد علـى سـبعين عامـاً بـل إن بعضهـم كان فيها منذ العهد العثماني فأين تكون مواطنة وكيف يطالب الناس بالهوية الوطنية والانتماء الوطني.

يقابـل هذا النص للمقيمين في المدينة المنور من أهل نجد نـص أشـد منه قسـوة وأكثر منه خطـراً وأبعد منـه في الانحياز الإقليمـي وأكثـر تجاهـلاً لمـا نسـميه الهويـة الوطنيـة تقدمه مؤلفة كتاب « مهد الإسـلام»: البحـث عن الهوية الحجازية».

www.mtenback.com

وفيه ترى الباحثة هوية أخرى غير هوية الوطن الذي نتحدث عنه وتختصرها في خمس وعشرين عائلة وسنعرض ما تعنيه الهوية عند مؤلفة الكتاب تقول: (منذ بداية الثمانينات، أكد الحجازيون، وخاصة أفراد العوائل، أكثر فأكثر على هوية محلية يعبرون عنها تحديداً بالارتباط بالمراكز المدينية البارزة)[1].

وتقول في مكان آخر : (تساعد الطقوس على تميز الحجازين عن النجديين الذين إعتمدوا هم أيضاً حياة احتفالية من شأنها ترسيخ هوية وطنية سعودية)[2].

وتقول مرة ثالثة: (إلا أن العوائل لم تتحول أبداً إلى نخبة مفتوحة. على العكس، فإن ميل الأعضاء إلى إعادة إحياء الاحتفالات الرسمية وتطويرها منذ الثمانينات لم يؤد فقط إلى تسييس الهوية الحجازية بل ساهم أيضاً في الحؤول دون دخول حديثي الثراء الحجازيين وهم على الأرجح موالون للنجديين)[3].

(١) مهد الإسلام البحث عن الهوية الحجازية ص٣٩، مي يماني الطبعة الأولى ٢٠٠٥م، نشر دار الساقي.

(٢) البحث عن الهوية الحجازية، ٤١.

(٣) البحث عن الهوية الحجازية، ٤٤.

www.mtenback.com

ولا أستطيع إتمام الجملة التالية لنص السيدة المؤلفة وإلا لصرنا إلى مأزق أكبر من قضية الانتماء والهوية التي نبحث عنها إلى شيء لا يخطر إلا ببالها هي وحدها ولكن لا بأس أن نعرف أن هذه السيدة هي بنت الشيخ أحمد زكي يماني وزير البترول السعودي على مدى نصف قرن.

وآخر عناقيد الوطنية واللحمة الاجتماعية!! ما نشرته مرام عبدالعزيز على موقعها في « الفيس بوك» ونقله عنها الأستاذ أشرف إحسان فقيه وهذا نصه كما جاء في جريدة الوطن ٢٤/ ١٠/ ١٤٣٠هـ « نشوى طاهر، مضاوي الحسون، أماني عبدالواسع، سوسن شاذلي، ازدهار با توباره، لمى السليمان، غادة غزاوي،.. للأسف فقط مضاوي ولمى السعوديات الأصليات، أتمنى أن تكون غرفة جدة مثل الداخلية والخارجية لا يتم تعيين أي موظف بهما إلا بعد التدقيق في أصله ونسبه، وليس كل من هب ودب.. هذا يعني أن السنوات القادمة ستكون جدة مرتعاً لحثالة المجتمعات التي قدمت منها تلك النساء، والاستثمار المزيف لهؤلاء سيضاعف أحجام السلب والنهب ثم الرحيل كالعادة» انتهى النقل عن جريدة الوطن

www.mtenback.com

وعن مرام عبدالعزيز.

لا أظن أحدا يواري سوءة هذه اللغة التي تمس أسس البناء الوحدوي والانتماء الوطني بل ما كنت أظن أن أحدا توسوس له نفسـه بمثل هـذا القول فضلاً عن كتابتـه ومواجهة الناس به على المـلأ وهو أمر بلغ حده الأقصى في الشـوفونية الممقوتة والتنكر لمعنى الهوية الجامعة.

من هـؤلاء؟

هؤلاء الذين نقلنا رأيهم في الانتماء والهوية الوطنية ليسـوا من عوام الناس وليسـوا من الطبقة الوسـطى بل هم بلا استثناء من علية القـوم ومن النخب في المجتمع السـعودي وهم أهل رأي فقهي وموقع سياسـي، ورأيهم الذي عبروا عنه ليس رأيـاً فرديـاً فمواقعهـم في قمـة هرم المسـؤولية الدينية والسياسـية والاجتماعيـة تجعلهم من أهل الرأي ومـن أهل الحل والعقد في الكيان السياسـي الذي نـدرس مواقف النخبة مـن الانتماء والمواطنـة ورأيهم في الهوية المشـتركة فـإذا كان هذا هو رأي النخبة العلياء في المجتمع فكيف رأي عامة الناس الذين ينظرون إلـى هـؤلاء على أنهم القدوة والأسـوة. إن ما عـبر عنه هؤلاء

www.mtenback.com

ليس حديث مجلس مغلق وإلا لقلنا خطرات لسـان وأحاديث سـمر، وقول مرتجل قد يخطر بالبـال ويزول في الحال. وليس حديث أفراد من عامة الناس وأوساطهم وإلا لقلنا إنه تعبير عن حالة فردية، ورأي شـخصي وقـول تنقصه الرؤية والتأني. لكن كل ما نقلنا صدر عنهم وهم في هذه المكانة الاجتماعية وصدر عـن قناعة، واختمر في أفئدتهم طويلاً حتـى عبروا عنه بالكتابة وأكدوه على الملأ بالتدويـن، وأعادوه، ولم يعتذروا عنه، ولا أظنهم شـعروا بشيء من الألم كما تألم الشـاب الذي مر قوله قبل قليل.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الثنائية الكبرى والتكوين الجديد[1]

المجتمع في المملكة العربية السعودية صورة معدلة للماضي القريب حين استجابت كل أقاليمها وسكانها لدعوة الوحدة والاندماج الذي كوّن في نهاية مرحلة الجهاد نموذجاً اجتماعياً متميزاً في بنائه وتلاحمه ووحدته على الرغم من سعة رقعة البلاد وتباعد أقاليمها وتشتت ماضيها وتعدد الولاءات فيها، إلا أن الذي لا يختلف عليه الناس في الماضي وفي الحاضر الراهن هو الثنائية الكبرى في التكوين الديمغرافي والسكاني المتميز، للجزيرة العربية فعلى امتداد مساحتها، وتنوع سكانها تجاوبت طبيعة المجتمع الجديد مع هذا الامتداد والتنوع، فأصبح القاسم المشترك الذي لا تخطئه العين هو انقسام سكانها قبل الوحدة الكبرى إلى مجتمعات مستقرة أو شبه مستقرة، وبادية متنقلة أو شبه متنقلة، وتوزع هذين الشكلين على أديمها في كل أقاليمها وأجزائها بلا استثناء، وإذا كان الماضي القريب قبل ضمها على يدي المؤسس الملك عبد العزيز شهد صوراً من الإمارات والدويلات والحكام والأسر

(١) أرسل هذا الرد لجريدة الشرق الأوسط في ١٩٩٥/٧/٤م.

www.mtenback.com

الحاكمـة، فإن الواقع الاجتماعي تآلف من هذين النوعين معـًا وكونـا ما يسـمى - باديـة وحاضـرة- وعندما بـدأت الخطوة الأولـى لاسـترداد الرياض كان العـدد القليل الـذي خاطر في تلـك المحاولة يمثل هذه الثنائية التي نتحدث عنها اليوم، وقد تحـدث عنها كل من كتب عن تاريـخ المملكة الحديث، وكل مـن تعرض لتاريخ الجزيرة الحاضر، وقد نمت عملية التوحيد على أيـدي هـذه الثنائيـة الديمغرافيـة والسـكانية، وتكاملت وانصهـرت بفضـل وعي القيـادة للمسـتقبل وتخطيطها بروية صافيـة ونظرتها إلـى الهدف البعيـد الذي رمى إليه المؤسـس عندمـا اسـتعاد الريـاض وبـدأ في مرحلـة الاسـترداد الكامـل لسـلطان دولة كانت قائمـة ومجد موروث، فسـاعدت معالم الرؤية ووضوح الهدف وسواسـية المشـاركة إلى عودة ماضي الدولـة وتجديـد ما اندثر من معالمه، وقـد مضى يحقق النصر للأهداف التـي تعيد إلى جزيرة العرب قوتهـا في قيادة واحدة، وأمة واحدة تهدف إلى البناء للحاضر والمسـتقبل وتشارك كل الفئـات في التطور بغض النظر عن الانتماء القبلي أو الاقليمي. ولـم يلبث هذا الجهد الموجه منـذ بدايته إلى الغاية الصحيحة

www.mtenback.com

وهي المساواة والمشاركة في السراء والضراء حتى حقق الغرض في ظروف لا تسمح بالكلام ولا تعرف التنظير ولكنها تعرف العمل وتتحدث بلغة الفعل الذي يسطر الحقيقة على أرض الواقع.

وقد مضت تلك الأجيال وبقيت آثار صبرها وجهادها وهو هذا الحاضر الذي نعيشه وننظر له، وجاء دور التأمل والاستقراء فيما حدث بعد أن عاشت الأجيال اللاحقة واستمتعت بما قدم لها أهل هذه البلاد بثنائيتها المعهودة- حاضرة وبادية- والوجود القائم اليوم شيء يستحق النظر ويستحق التأمل والتفكير، ويستحق أن يفخر به المفاخرون من الأبناء والأحفاد، حتى أصبح الجيل الذي لم يشهد إلا القليل من المصاعب والمشقة التي تحملها الآباء يعيش حاضراً مزدهراً ومعطاء، لكنه يعرف ضخامة ثمن هذا الحاضر وما قدم الأسلاف من تضحيات كبيرة ويود أن يكون نصيب آبائه من تلك التضحيات كنصيبه هو من رغد العيش في مرحلة الاستقرار، فيتحدث عن الماضي القريب ويقارن بالحاضر فيرى ما بين الحالين. وأي امرىء لا يود أن يكون لآبائه القدح

www.mtenback.com

المعلى والوسام الأول في تلك المرحلة التي أصبحت تاريخـًا مشـرقـًا بل صـارت فصلا كامـلا في تاريـخ الجزيـرة العربية، كل يـود أن يخـط فيه صفحة يقرؤها الناس ويعيدون سـماعها ويرددون كل كلمة سطرت فيها.

ويظهـر أن الاعجـاب بـكل فصـول الملحمة شـجع كل متكلـم وواعـظ وأطلـق كل لسـان يقـول فيجد مجـال القول واسـعـًا. وقد مضى سـبعون عامـًا ملئت بالذكريـات الجميلة وتزاحمت الأقدام فيها كمـا تزاحمت الأقلام تتحدث وتدافع عنها، كل يضيف إلى الملحمة تصوره لها وشعوره نحوها وما يظن أن له دوراً فيها أو لآبائه، فصارت دروسا وعبراً، ولم يعد الحديث مشـافهة أو خاطـرة عابرة لكنه أصبح تاريخـًا تسـطر فيه العبر ويذكر فيـه صحيح الخبر، ويتخصص فيه المؤرخون الذين يقـرؤون الحوادث غير مقطوعة عن سـياقها، أو مبتورة عن مسـارها، بل موصولة في ماضيها وحاضرها، ومنَّسـقة مع المـدرك المشـاهد، وكنَّا ننتظـر دور المـؤرخ الفاحص الذي يدرس وينظر ويحقق في مسـائل التاريخ ورواية الأخبار ويميز بين الحقائق وأشـباهها، ويدرس حقبة ذهبية في تاريخ الجزيرة

www.mtenback.com

العربيـة فيعطـي للتاريـخ لونه كما هـو وطعمـه، ويضفي عليه قشـيب حلته، وينصف أهله الذين صنعوه ومضوا تاركينه أمانة في أعنـاق الأجيـال، وإرثـًا خالـدا للجميع. وقد جـاء من أبناء الجزيرة من يستطيع أن ينهض بوظيفة المؤرخ الأمين وينهض بالعبء الضخم وهو الاسـتقراء الصحيـح والإنصاف، ولكن يظهر أن إغراء الماضي وبريقه وسرورنا به كان مما يتنافس فيه المتنافسـون، وهو تنافس باعثه الاعجاب الذي نقدره ونحترم ذكـره، إلا أننا لا نريد أن يكون هذا التنافس والاعجاب سـببًا لإحيـاء الثنائيـة الديمغرافية التـي صهرت في الوحـدة الكاملة وأميتـت بواعث إحيائها قبل سـبعين عامـًا حتـى لا تعود هذه الثنائية حديثـًا وتاريخـًا على ألسـنة المؤرخين الذين يؤرخون لنا ماضينا القريب، **ثم لا يجحف تفسـير التاريخ على حقائقه.**

إن روايـة التاريـخ عندما يكون حديث مجلس وقصص سـمر قابلة للتشـكل باللغـة التي يتحدثهـا الـراوي ويقصها القاص وكل منهما سـيأخذ جانب القضية إلى مورده ويشرعها حوضه ويمتـح دلوه منها، ولا يحتاج أحـد إلى تصحيحه، أو تعقبه بل لعل الاسـتماع إليه يعطي طعمـًا لذيذاً لاختلاف الرواية وتنوع

www.mtenback.com

التجربـة. وقـد كنت أسـمع منذ وعيـت نماذج كثيـرة من هذا النـوع فكل راوٍ يأخذ بكفة الميـزان فيجعل الراجح له والمائل لصاحبـه، يحدثـك رجـال البادية فـلا تظن أحداً شـاركهم في معركة التوحيد ولا وقف غيرهم في كل موقف تحقق فيه النصر لجيش الوحدة، ويحدثك رجال الحاضرة فتسمع أن كلاً منهم ضحـى بنفسـه أو مالـه أو بالنفس والمـال معـًا وأنهـم لا أحد غيرهم كان هناك. فتود لو سـمعت الرأي الثالث الذي يسـمع قـول الطرفين ويحكم بين الخصميـن، ومن يكون إلا المؤرخ المتخصـص الذي اسـتمع إلى الجميع ونظـر وتمعن ثم ألقى حكمه في غياب الشـهود وبقاء الأدلة. وقد كان أخونا الدكتور عبـدالله العثيمين أحد من يتجه إليه النظر فهو المؤرخ الشـاهد للغائبين وهو الذي تخصصـه يخدم ميله في تتبع آثار الماضين من أسـلاف هـذا الجيل، وقـد أمعن النظر فيمـا كُتِبَ عن هذه البـلاد ووحدتها، وسـمع الكثير مما يروى وينقل مشـافهة وما يتحدث به الذين شـاركوا في بناء المجتمع السعودي الحديث غيـر ما هـو مكتوب، فـكان علمه، روايـة، ودرايـة. والظن أن يكون فيما يقول مقنعـًا إذ لا ينقصه تخصص المتخصصين ولا

www.mtenback.com

يجهل أحاديث المجالس ونقل المشـافهين، ولقد كنت أجزم أن مثل الدكتور العثيمين خير من يحدثك عنهم ويفتيك فيهم، وينصـف الجميع ويعدل بينهم، وقد طالعنا في محاضرة ألقاها في لندن عن ملحمة الوحدة وكان ما اطلعت عليه منها ملخصاً كل التلخيـص لكنـه لافت للانتباه حيث ارتكـز الحديث على الثنائيـة المعهودة – الحاضرة – والباديـة – وانتصر المحاضر لطرف ضد آخر وأطلق رأيه في حكم عام ومعنى مباشر عهدنا مثلـه في أحاديـث المجالـس وقصص الـرواة عندمـا يتحدث كل راوٍ عـن نفسـه أو فئته فيصف الأحـداث وصفاً يقوم على الانطباع والاندهاش ويشـكل حديثه حسـب نوع المخاطبين ورغبته في إسماعهم ما يودون سماعه أو ما يود هو أن يتحدث بـه إليهم، وليس ذلك ما نريده من مؤرخ يعرف المنهج ويقابل الرواية والمشـافهة بما يصححها أو يثبتها ويُمحِّص ما يسـمع مـن الأخبار والآراء ولا يقطع بشـيء حتى يوثقـه ويعرف من يحدثـه، ولا يطلـق حكمـاً عامـاً واسـتقراء مبتـوراً فيقول كما قـال أخونا الدكتـور عبدالله العثيميـن: « وأدرك– يعني الملك عبد العزيز– أن العمود الفقري لقوة أولئك الأسلاف عسكريا

www.mtenback.com

كان الحاضرة من السكان، وأن البادية تقف مع المنتصر، لكن غالبيتهـا تغيـر ولاءها بمجـرد ظهور بـوادر ضعفـه، ومن هنا جـاءت فكرتـه الذكية في بث الـروح الدينية في نفـوس أفرادها وحثهم على الاسـتيطان، وبهذا الاستيطان المبني على أساس دينـي قضى بدرجة كبيرة على اعتـداءات بعضهم على بعض، واعتداءاتهـم على الآخرين، كما كوَّن منهم وحدات عسـكرية أثبتـت جدارتها بين سـنتي ١٣٣٥هـ في مسـيرة توحيد البلاد». (انظر الشرق الأوسط في ٥/ ١/ ١٤١٦هـ).

هذه الجملة جمعت لبّ المحاضرة كلها فقد بينت عبقرية المؤسـس وحاولـت أن تميـز دور كل فريـق، فجـاء فيهـا أن الحاضرة هم العمود الفقري لقوة الدولة السـعودية ولأسلاف المؤسس، وأنه أي الملك عبد العزيز قد استفاد من عبرة التاريخ وعرف ولاء الحاضرة له وصبرهم. أما البادية في رأي المحاضر فيغيِّـرون ولاءهم بمجرد ظهور ضعـف الزعيم وينقلبون عليه ولا يقفـون إلا مـع المنتصـر. وإذا صحت هذه الصفـة للبادية فإنهـم كانوا عبئـًا ثقيلاً على المؤسـس وعلى الكيـان فهو لم يسـتفد منهم إلا بعـد تربيتهم تربية دينية شـاقة وتوطينهم، ولم

www.mtenback.com

تكن نتائج هذا التوطين إلا ليمنعهم من اعتداء بعضهم على بعض، ويمنعهم من الاعتداء على الآخرين، فأصبح العدوان على بعضهم وعلى الآخرين صفة ثانية بعد قلة الولاء عند الضعف. ومع أن الدكتور العثيمين حاول أن يجعل للتوطين والتربية الدينية نتيجة أخرى حسنة وهي أنه كوَّن منهم وحدات عسكرية أثبتت جدارتها بين سنتي ١٣٣٥هـ- ١٣٤٤هـ والبادية سيشكرونه على ذكر هذه الجدارة التي وصف بها وحداتهم العسكرية - إلا أنه جعل هذه الجدارة تأتي متأخرة إذ لم تبدأ حتى انتصر الزعيم ودخلت كل أقاليم نجد في حكم الملك عبد العزيز وهذا نص المحاضر: « ومن الواضح أن أكثرية النجديين خاصة الحاضرة، قد أصبحوا يكّنون مودة وتقديراً لهذه الأسرة بعدما جنوه على أيدي قادتها الأوائل من فوائد، ولذلك كانوا مستعدين للوقوف مع أي قائد مؤهل ينتسب إليها، ومما يوضح هذا الأمر أن قادة الدولة السعودية الأولى لم يوحدوا سكان منطقة نجد قبل أن يروا فوائد الوحدة إلا بعد ما يربو على أربعين سنة من الكفاح المستمر، لكنهم انضموا إلى حكم الإمام تركي بن عبدالله في الدولة السعودية

www.mtenback.com

الثانيـة، خلال عامين كما سـبق أن ذكر، ثم سـارعت أكثريتهم إلى مسـاندة الملك عبـد العزيز بحيث لم يمـر عامان ونصف العـام إلا وقـد دخلت تحـت حكمه جميع أقاليـم نجد ما عدا جبل شمر». انتهى.

فالتاريـخ يقـول : إن الملـك عبـد العزيـز دخـل الرياض ١٣١٩هـ وإذا أضفنا عامين ونصف التي دخلت فيها نجد كلها تحت حكمه غير جبل شـمر فسـيكون ذلـك في عام ١٣٢٣هـ. ويبقـى بيـن هـذا التاريـخ والتاريـخ الـذي حـدده المحاضر للاستفادة من كتائب البدو ثلاثة عشر عامـاً وبهذا ينطبق عليهم رأي الدكتور فيهم الذي هو عامل الرغبة وطاعة المنتصر حيث اجتمعت نجد وقام النصر ودورهم لم يبدأ.

إذاً لا خيـار للبـدو إلا الطاعـة هـذا هو ما يفهمـه القارىء أو هـذا هو مـا فهمته أنا حتى لا أحمل علـى المحاضر الكريم وعلى القراء فضل فهمي الشـخصي للنص. ولا شـك أنني لا أسـتطيع إنكار شيء مما أورده لأنه متخصص في تاريخ الدولة السـعودية منذ بدئها وهو من حاضرة نجـد التي كانت العمود الفقـري للدولة، ولها ولاء ثابـت لا تغيره ولا تحيد عنه إلا أنه

www.mtenback.com

بعد قليل شكك القارىء فيما يزعم للحاضرة من فضل، وقلل من الثقة بسـلامة هـذا الولاء وثباته وبراءته عندما علل أسـبابه فقـال : « ومـن الواضح أن أكثرية النجديين خاصة الحاضرة، قد أصبحوا يكّنون مودة وتقديراً لهذه الأسرة **بعدما جنوه على أيدي قادتهـا الأوائل من فوائد**». وهذا يعني أن المودة والولاء ليسـت خالصة لوجـه الله ولكنها ثمن لجنـي الفوائد والمنافع على أيدي هـؤلاء القادة، فالولاء والثبـات لأغراض ومآرب، وبهـذا يسـتوي الفريقان، البادية الذين يُغيِّرون ولاءهم بحثاً عـن الزعيم القوي الـذي يحقق لهم الفوائـد وتركـاً للضعيف العاجـز، والحاضرة كذلك يكنُّون المودة والولاء لجني الثمار والمنافع علـى أيدي الزعماء الذين يحققـون لهم ذلك وليس لوجه الله.

إن الثبات على الولاء أمر نسـبي في كل الأحوال وعند كل المجتمعـات والأمـم التي نعـرف تاريخها، فليـس هناك ولاء مطلـق، ولو كان تغيير الـولاء عيباً لما قامـت الدول وتغيرت المجتمعـات وتحولـت الأقاليـم والأقطار إلـى وحدة كبرى. والمحاضرة تتحدث عن الوحدة التي نعيشها وهي شاهد حي

www.mtenback.com

علـى تغير الولاء عند كل سـكان المملكة واختيارهم الأفضل الـذي يحقق لهـم الفوائد التـي لا يجنونها بثباتهـم على الولاء المحلـي للإقليم أو الزعيم، وكل قريـة وقبيلة عندما **انضمت إلى الوحدة الكبرى غيَّرت ولاءها السـابق** واسـتبدلت ولاءها الأول واختـارت مـا هو خير لها في مسـتقبلها، فأصبح كل فرد وأصبحـت كل فئة من سـكان هـذه الوحدة تجنـي فوائد تغير الـولاء، ونحمـد الله أننـا لـم نثبـت علـى ولاءاتنـا القديمة أو بالأصـح نشـكر آباءنا الذين غيـروا ولاءهم القديـم واختاروا الأفضل، وهي الوحدة بعد الفرقة، والدولة بعد القرية، والأمة بعد الفئـة، والوطن الـذي يعيش عليه الجميع بعـد الحيازات الخاصة، وكل ما نحن فيه كان بفضل تغير الولاء وعدم الثبات عليه.

إذن التحول إلى الأفضـل ومع الأصلح هو الأمر الطبيعي عند الناس وليس خاصـاً بفئة منهم دون أخرى. وقد كان الأمل في مسـتقبل الوحـدة التي دعا إليها المؤسـس هـو الذي وحد الصفـوف وجمع الكلمة وألف بين كل الثنائيات القائمة آنذاك فحولهـا إلى دولة ومجتمع جديد، وغيَّر ولاءها السـابق الذي

www.mtenback.com

لا ترجو منه نوالاً ولا خيراً إلى ما يؤمل ويرجى نواله وخيره.

عدوان البدو على بعضهم وعلى الآخرين :

يزعم الدكتور العثيمين أن توطين البادية قضى على خصلة أخرى من خصالهم وهو الاعتداء على بعضهم وعلى الآخرين، ولا اعتراض لنا على التوطين ونتائجه لكن اللغة التي استعملها المحاضر غير صحيحة الدلالة. فالعدوان الذي وصفهم به أمر عبثي، **وهناك فرق كبير بين العدوان والغزو للمغنم والكسب المنظم، فالقبيلة العربية منذ الجاهلية تحترف الغزو وتقوم به وفق عادات اجتماعية منظمة تخضع لقوانين وأعراف اجتماعية تقدرها القبائل وتقبل بنتائجها، بينما العدوان أمر عبثي لا يقوم به أحد إلا عوقب عليه ونبذ من مجتمع القبيلة وطرد من نظامها الاجتماعي**، والفرق يجب أن يكون واضحاً بين الأمر العبثي الذي نسميه العدوان غير المبرر وبين الغزو لطلب الكسب والبحث عن المغنم، وهو أمر اتفقت عليه العرب ومارسته بغض النظر عن موقفنا نحن الآن من هذا الكسب وقبوله أو رفضه، فهو طبيعة العرب وله قوانينه وآلياته وأسسه التي تبعده عن العدوان العبثي، وتجعله

www.mtenback.com

سلوكا اجتماعيـاً منظمـاً، ومتفقـاً عليه ليس فيه عيب ولا نقص للمروءة ولا خروج عن تقاليد الفروسـية الموروثة منذ الأزل، وإذا كنَّـا نحن اليـوم نمقت الغزو ونصفـه بالمحرم ويجب أن نمقتـه فإن تاريخ القبائـل العربية هو هذا التاريخ ولا يختص به جيـل منهم ولا حقبة من حقب التاريـخ العربي، ولعل نصيب أهـل القُرى منه علـى بعضهم وعلى الآخريـن كنصيب البادية بل لعله بين الاقاليم والقُرى أشـد بلاءً وأطول استمراراً. وهو ظاهـرة اجتماعية عنـد كل القبائل العربية المسـتوطنة ومن لم يعرفـوا التوطين ولا تتميز به فئة دون أخرى. وعند غير العرب أيضـاً مـن الأمم والمجتمعـات التي تعيش حيـاة مثل حياتهم وتخضع لظروف مثل ظروفهم.

كتابة التاريخ :

إن تاريخ المملكة الحديث لا زال في معظمه تاريخ مشافهة وروايـة ولا زال في مرحلـة التكـون والاسـتقراء والاسـتنتاج والدكتـور العثيمين وجيله من المؤرخين الشـباب هم أول من اهتم به وسـجله منهجيـاً وعلميـاً، وقد سـمع أحاديث الشيوخ الذين شـاركوا في عملية التوحيد وقرأ مدونات المؤرخين غير

www.mtenback.com

المنهجيين واطلع على آرائهم، ومادة التاريخ بين يديه بكر يستطيع أن يعرضها على المنهج العلمي الأكاديمي الصحيح ويقارب لنا الحقيقة من التاريخ إن لم يصل إلى الحقيقة نفسها. والأهم من ذلك أنني أعرف شخصياً قدرة فهمه لما يسمع من أحاديث المجالس. والخبر عند المؤرخ إذا كان في طور المشافهة والرواية لا يعتمد فيه على قول مفرد أو رواية جهوية وإنما يعتمد على مصادر متنوعة وأخبار عدة ثم يستخلص من كل ما توفر لديه رأيه. وأمام هذه الحال كان بودي لو أسند معلوماته التي أوردها إلى مصادرها حتى يكون مقنعاً لاسيما أن أغلب المصادر والروايات والأخبار التي تسجل التاريخ الحديث للدولة السعودية القائمة تخالف ما ذهب إليه في محاضرته، وتعزو الدور الكبير في عمليات الجهاد ومعاركه الفاصلة إلى من يسمونهم البدو، وقد ملئت الكتب عنهم وعن بطولاتهم وتجاوزاتهم أحياناً، وبعضها روايات كتبت بأيدي مؤرخين من حاضرة نجد، وقد فهمنا من وصف بعضهم لبعض المعارك الفاصلة أن جيش الملك عبد العزيز كان كله فيها من البادية مثل معركة روضة مهنَّا عام ١٣٢٤هـ

www.mtenback.com

التـي قتل فيها خصمه اللـدود الأمير عبد العزيـز بن متعب بن رشـيد، وهذا التاريخ سـبق ما حدده العثيمين لجـدارة كتائب البـدو بعد التوطين التي لـم تبدأ عنده إلا عام ١٣٣٥ هـ أي بعد أحد عشـر عامـًا من وقعة روضة مهنّا، ومع هذا فلا زلت أزعم أن العثيميـن يسـتطيع أن يثبـت ما يقول وما يذهـب إليه ولديه من مرويات التاريخ الحديث بحكم تخصصه وصلته بالمنطقة وأحداثهـا مـا يقولـه في هـذا الأمر إذا قـام بجمـع المعلومات وإحصائهـا واختيار المنهج الذي يقود إلـى الحقيقة أو يقاربها كأن يعمـد إلى عدد المعارك التي خاضها جيش الوحدة وعدد المشـاركين فيها وأسـماء الزعماء في كل معركـة وهذا يحتاج إلى عمـل دؤوب وجهد منظم. وملحمة الوحدة تسـتحق هذا الجهـد، وتجعلنا نحن الذين نقـرأ آراء المؤرخين وأحاديثهم عن ملاحم الوحدة التي تنسـبها إلى غير أهلها نرجوه أن يشمر عـن سـاعد الجدِّ ويبيـن الحقيقـة ويصحح ما كتب، وينسـب الفضـل إلى أهله، ولا نريد من أخينـا الدكتور عبدالله العثيمين أكثـر من تسـيجل تاريـخ الـدول السـعودية القائمـة التي هي موضوع محاضرته.

www.mtenback.com

البدو والتدين :

النقطة الأخرى التي وردت في ملخص المحاضرة هي قضية الدين والحركات العلمية في المناطق والأقاليم الأخرى قبل انضمامها إلى بعضها حيث استعرض المحاضر تاريخها كالحجاز مثلاً إذ يقول عنه : « وكانت هناك حياة علمية دينية نشطة في الحرمين الشريفين، لكن الجهل بالدين كان مع ذلك منتشراً بين عامة السكان، وخاصة البادية».

ويقول عن نجران وجازان : « وأما إقليم نجران فكان تحت حكم رؤسائه المحليين، ومع وجود حركة علمية في جازان بالذات فإن الجهل الديني في الإقليمين كان كبيراً خاصة خارج المدن».

وعن الاحساء والقطيف يقول : « وكانت منطقة الأحساء والقطيف قد دخلت تحت الحكم العثماني بعد منتصف القرن العاشر الهجري لكنها خرجت عن ذلك الحكم عندما استقل بها زعماء قبيلة بني خالد عام ١٠٨٠/ ١٦٧٠. ومع وجود حركة علمية جيدة فيها فإن الجهل الديني كان منتشراً بين عامة سكانها، خاصة البادية.

www.mtenback.com

والدكتـور المحاضـر يصف هـذه الأقاليم بوجـود الحياة والحـركات العلمية والدينية النشـطة مرة والجيـدة مرَّة أخرى إلا أنـه يؤكـد في كل مـرّة أيضـاً أن الجهل الديني كان منتشـراً وكبيـراً بيـن عامة السـكان وخاصـة البادية، والمفهـوم عندما يتحـدث المؤرخ عن تلك الفـترة ويذكر الحركـة العلمية فإن المقصود بالضـرورة الحركة العلمية الدينيـة التي تعلم الناس علوم العربية والدين ولا يتبادر إلى الذهن غير ذلك. وقد نص على الحياة العلمية أو الدينية في بعض ما ذكر، لكن الأمر يبقى فيه شـيء مما يجب توضيحه، فمع ذكره النشاط العلمي يؤكد جهـل البدو وعامة الناس خـارج المدن بالدين، فكيف لا تغير هـذه الحركات العلمية الناس في أمـر الدين خارج المدن، ولا تفيد البادية ولا تنفي عنهم الجهل الديني ولا تنفعهم وهل كان بين من يعيشـون خارج المدن والبادية وبين المدن وأهلها من الحواجـز والفواصل ما لا يمكن أن يتعلم منه البدو شـيئـًا من أمر الدين؟

لا أظـن الدكتور العثيمين مما يغفل عن مثل هذه الأسـئلة وضـرورة تحديـد الـدلالات وضبـط المصطلحات لاسـيما

www.mtenback.com

في محاضرة عامة تلقى في لندن وعلى جمهور مختلف عن جمهورنا كل الاختلاف وبعيد عن مصطلحاتنا المحلية ودلالاتها التي نستعملها ونكررها ونفهم معناها أو المقصود منها. أما جمهور لندن فما أظنه سيفهم العملية النسبية التي نتحدث عنها في المملكة عندما نصف الناس بالجهل الديني. وقد كان حظ البادية من هذا الجهل بالدين كبيراً عند المحاضر ففي كل مرة يؤكد عليهم : « وخاصة البادية».

وهنا لم يعد الأمر تاريخاً أتركه للتخصص وأطلب الفتوى لكنه معرفة عامة وعلم مشاع أعرفه كما يعرفه الصديق الدكتور عبدالله العثيمين وهو أنه منذ أن بعث محمد ﷺ وآمنت به العرب واجتمعت على ذلك، وسكان هذه الجزيرة وخاصة البادية كما يقول هم أهل الدين النقي الصافي دين الفطرة حيث لا يلبسونه بغيره ولا يخلطونه بأغراض دنيوية ولا يغلِّفونه بأفكار وآراء أو معتقدات مفرطة في التنظير ولم يتحولوا عنه، واكتفت البادية بأسس الدين الثابتة وهي تلك التي كانت على مثلما كان عليه العرب في عهد الإسلام الأول لا يزيدون فيه شيئاً ولا ينقصون منه شيئاً، وقد ينطبق عليهم أو على الكثير

www.mtenback.com

منهم حال الأعرابي مع رسـول الله ﷺ عندما سـأله: ماذا فرض الله علـيَّ يـا محمد، فقال أن تشـهد ألا إلـه إلا الله وأن محمداً رسـول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الـزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت، فعاد الأعرابي يسأل مؤكداً إن لم يفعل غير ذلك هل يكون مسـلمـًا، يدخله عمله الجنة فقال الرسـول ﷺ نعم فكأن ردّه والله لا أزيد ذلك ولا أنقص فقال الرسـول ﷺ : أفلح إن صدق.

ويتبقى شيء غير واضح في ما يردد المحاضر من الجهل في الدين، فقد وصف الحيـاة الدينية في الحرمين بأنها حياة علمية دينية نشـطة لكن الجهل بالدين كان مع ذلك منتشـراً بين عامة السكان.

ويقول عن الأحسـاء والقطيف بأن بهـا حركة علمية جيدة ومـع ذلك فإن الجهـل الديني كان منتشـراً، ومثل ذلك نجران وجيـزان مع وجـود حركـة علمية في جيـزان بالـذات. إذن ما الديـن الذي يعنيه مع إقـراره بحركات علمية ودينية نشـطة في هذه الأقاليم. سؤال قد يحتاج إلى إجابة من المحاضر الكريم.

www.mtenback.com

إن البادية الذين يصفهم بالجهل الديني في كل مرة ويؤكد على ذلك يقومون بكل ما ذكر في الحديث السابق وقد لا يزيدون كثيراً فيه لكنهم لا ينقصونه ولا يتركون ركنًّا من أركان الإسلام وقد شهد لهم الرسول ﷺ بالجنة وحسبهم شهادته.

ثم إن القضية في التعليم نسبية فمن يصفهم بالجهل في مطلع هذا القرن من سكان القُرى والبادية يمكن أن يوصف به اليوم سكان القُرى والبادية والحاضرة أيضاً غير المتخصصين في علوم الدين. والتعليم في كل مجتمع نسبي أيضاً. أما الدين فهو صفة وجدانية تمليها الفطرة ولا يتخلى عنها الناس في كل الظروف والأحوال ولا أظنه يصدق على حال الجزيرة العربية وسكانها الجهل بالدين بالمعنى المفهوم من الجهل عند اطلاقه دون تقييد، قد يقل المتعلمون وتنتشر الأمية ويبقى الدين اعتقاداً وممارسة عملية يقوم به المتعلم والأمي، وانتشار الأمية وقلة التعليم في الفترة التي تحدثنا عنها المحاضرة ظاهرة شائعة في كل الأقاليم العربية ومجتمعاتها وليس حال الجزيرة العربية وسكانها استثناء من القاعدة العامة في ذلك الوقت.

www.mtenback.com

القبيلة والبادية :

يظهر أن مصطلح القبيلة والبادية عند المحاضر غير محدد بالدقـة التي يجب أن تكون واضحة ومفهومة عند اسـتعمالها، فالثنائيـة التي يتحـدث عنهـا - الحاضرة - البادية - لم تكن متسـقة في دلالتهـا اجتماعيـاً إلا في إقليـم واحد مـن المملكة العربيـة السـعودية وهو إقليم نجـد حيث تميزت حيـاة البادية عـن الحاضـرة واختلفـت الممارسـة اليومية لـدى كل منهما قبل توحيـد المملكة وفي الحقبة التـي اختارها زمنـاً لموضوع محاضرتـه ثم سـحب مصطلـح البادية والحاضـرة بدلالته في إقليم نجد على كل سكان الجزيرة العربية وهذا المفهوم جعله يخلـط خلطـاً كبيراً بيـن مصطلح القبيلـة والباديـة حيث ذكر الحجاز والبادية فيه والأحساء والبادية فيه وتجاوز ذكر البادية في جـازان وجعـل مكانهـا «**خاصة خـارج المـدن**» ونفهم من كلامه هذا عن خصوصية منطقة جازان عنده أن القبيلة والبادية شـيء واحـد ومـرادف كل منهما للآخـر، وقد اعتمـد معرفته الشـخصية بحاضرة نجد وباديتها فسحبها على كل الأقاليم في المملكـة. وهذا ليـس صحيحـاً فالقبيلة ليسـت مرادفـاً للبادية

www.mtenback.com

وإن كانت البادية جزءاً من القبيلة فقبائل الحجاز الضخمة كحرب وعتيبة وجهينه وبنو عبدالله «مطير» وسُلَيم وهذيل وقريش وغيرها تعيش حياة استقرار مثل حياة الحاضرة في نجد وتشتغل بالزراعة وأكثرها لا ينتقل ولا يرحل، ولا ينطبق عليها مصطلح البادية المعروفة في نجد التي تقوم على حياة الرعي والانتقال والتحول. ولهذا فإن القبيلة غير البادية وليس من اللازم أن يكون كل من انتمى إلى قبيلة يعيش حياة البادية ويمارسها.

إن المجتمع الذي يفرز الطبقة التي ينطبق عليها اسم الحاضرة مجتمع ثلاثي التكوين، من البادية الذين يحترفون الرعي والانتقال، ومن المستقرين الذين يجمعون بين الزراعة والرعي ولا ينتقلون، ومن مجتمع التجار وأصحاب الحرف والصنائع، وكان سكان نجد في الفترة التي تحدثت عنها المحاضرة كلهم من النوعين الأول والثاني وبذلك ندرك طبيعة التكوين الديمغرافي شبه المتجانس في الثنائية القائمة فيه آنذاك وليس هناك فوارق كبيرة تميز سكان نجد البادية والمستقرين عن بعضهما إلا تقدير زمني محدود، فالمستقرون

www.mtenback.com

مـن سـكان نجد الذيـن يصفهـم حاليـاً بالحاضرة هـم قبائل اسـتقرت عن الرحيل وانقطعت عن الانتماء القبلي المباشـر، وأكثرهـم يعرفون انتسـابهم إلى إحدى قبائـل الجزيرة العربية ويحـددون علاقتهـم الاجتماعية بها على أسـاس ما في وعيهم مـن انتمـاء قبلي قديم، وهـذا الانتمـاء القبلي يتبـدى في أمور كثيرة تكشـف عن هذه الصلة وتحددها وتظهـر جليًّا ما أخفاه زمـن الاسـتقرار والاضطراب السياسـي. والدليـل ما يحدث اليوم مـن اهتمام لا مثيل له بتقرير الانتسـاب والانتماء القبلي وتجديده، وهي ظاهرة عجيبة أن تأتي بعد سبعين عامـاً من قيام هيـكل الوحدة الكاملة بين كل الأقاليم في المملكة وسـكانها، في حيـن أن المفـروض تجـاوز الشـكليات القديمـة، وضيـق الثنائيات، والانتمـاءات القبلية، إلى رحابـة المجتمع الجديد وتشـكيلاته التي توافـق الوضع الحالـي. وأَهَمّيـة نمو المدن المليونيـة بسـكانها من جميع فئـات المجتمـع وأقاليمه، ومع ذلك أتى الانتماء والانتسـاب القبلي والبحث عن أسبابه قويـاً عند حاضرة نجد مع هذا النمو الحضاري، وجاءت المحافظة على التميز الفئوي أيضـاً والانتماء إليه قوية كذلك. وكل ذلك

www.mtenback.com

يناقض طبيعة التحضر والتجمع السكاني الكبير الذي يجب أن يذيب التعلق القبلي والتميز الإقليمي، ويقلل من الشعور بهما والحاجة إليهما. إلا أن المرء عندما يبحث عامل التغير في بنية السكان يعرف ما أحدثته الوحدة الوطنية من تفاعل في بنية المجتمع الجديد، وماصاحب التغير الاجتماعي من وفرة مادية ضخمة، وكسب ممتاز، وبقي من لوازم الوضع الاجتماعي شيء لابد من البحث عنه وإتمامه وهو الانتماء والانتساب لتعزيز المكانة الحادثة بفعل الثروة النازلة، والغنى المكتسب، والمركز الاجتماعي المرموق، ثم الاستثناء من طبيعة التحول فمن كان من أبناء القبائل العربية قبل مائة عام وتحول إلى التحضر غير من كان من أبنائها قبل سبعين عاماً وتحول بعد ذلك.

وأياً ما كان الأمر فإن اتخاذ التاريخ شاهداً على تصنيف المجتمع بعد هذه الحقب من بدء الوحدة، والحديث عن هذه التصنيفات، وتلقين الأجيال الجديدة صور الثنائيات الماضية، ليس في صالح الحاضر، ولا يخدم المستقبل، ولا يتفق مع أسس الاندماج الوحدوي. والنمو السكاني. والتغير

www.mtenback.com

السـريع للمجتمع جعل الشـباب يدرك اليوم التفـاوت الكبير بين الحاضر والماضي والتصنيف عمل متناقض اجتماعيـاً مع أهداف التربية الوطنية التي يسعى الجمع لتأسيسها في النفوس قولاً وعملاً.

تعامل المجتمعات مع الثنائية :

لا شـك أن ماضـي المجتمع القريب عامـل مؤثر قوي في تفكيـره، وهـو إن لم يكـن فاصلاً وحاسـمًا في حاضـره، فهو شـديد الأثر فيه، لا تتجاوزه إلى المستقبل إلا النظرات القليلة الواعية التي تستشـعر القدرة العلميـة الصحيحة، وتزن الأمور بموازينهـا، وتقـرأ الفعل وردته فتجعل الماضـي مرحلة تطور حافـل فيمـا يريـد المجتمـع أن يرى عليـه مسـتقبله، حيث لا يتوقـف عند زوايـا الماضي ومنحنياته ولا يدقـق التفكير فيها، ولا يجعـل الماضي وحده مرتكـزاً للحاضر كله، وإلا لأصبح العـبء الذي يلقيه الماضي على الحاضـر كبيراً ومرهقًا حتى التفكيـر فيـه، ولاسـيما إن كان حاضـر المجتمـع قـد تعرض لتحـولات كبيرة غيرت صورته، وباعـدت بينه وبين الماضي، وانتقلـت به إلى طور من التكوين المتميـز الفاعل الذي نهض

www.mtenback.com

به ونقله من مجتمع صغير أو مشتت إلى مجتمع الدولة الكبرى ذات الأهداف المشتركة، والذين ينظرون إلى تاريخ الأمم الحديثة أو الدول التي أصبحت تمثل كياناً ليس قائماً من قبل يعرفون الجهد الشاق الذي يجب أن يقوم به القادة المؤسسون والمصلحون الاجتماعيون والمؤرخون حتى يتجاوز المجتمع صور التكتل الذي كان عليه أو كان يؤمن به من قبل إلى الأمة الواحدة ذات الأهداف المشتركة، وهذا يحتاج إلى جهد يستمر مع استمرار النمو الاجتماعي، ويتطور مع تطوره ومتغيراته، ويعمل على تجاوز التفكير الذي يحدد مسارات تاريخية لبعض قطاعات المجتمع أو فئاته، وإذا لم يخضع المجتمع للتربية الوطنية الجديدة ويتعهد المصلحون أجياله بالدمج فإن حاضر التكوين الاجتماعي سيخضع لتطورات غير متسقة ونتوءات بارزة في تكوينه الجديد. ولا يستمر بقوته وكينونته إلا تحت سلطان القوة التي تبقيه قادراً على الاستمرار، فلا يعود إلى حالة التشتت والضعف الذي كان عليها. والتكوين الاجتماعي لابد أن يتأثر بثنائية الحياة وتعدديتها ومتطلباتها وليس هناك مجتمع يخلو من الثنائية

www.mtenback.com

أو التعدديـة في كل تكويناتـه، مثـل ثنائية الهـوى وثنائية الرأي وثنائيـة المذهب وثنائية المنافـع والمصالح الخاصة أو العامة والثنائيـات الكبرى المتميـزة كثنائية المعتقـد أو ثنائية الإقليم أو العـرق أو ثنائية النسـب أو ثنائية الممارسـة وطريقة الحياة وطبيعة الاختلاف، وكل هذه الثنائيات تجعل المجتمع وفئاته يعيشـون في أطر التعامـل التلقائي مع التشـكيلات الاجتماعية الفاعلـة ذات البعـد البـارز في حياتهـم وفي حركتهم. وليسـت كل هـذه الثنائيات مكروهة أو محرمة وليسـت كلها شـراً، بل لعـل حيـاة المجتمع القـوي المنظم وفاعليته تقـوى على هذا التراتب الثنائي بشـرط ألا تقفل إحدى هـذه الثنائيات الطريق على الأخـرى أو تضمها تحت الإبط أوتجعلها في المؤخرة أو حتى تحاول ذلك.

والمجتمـع حيـن يبقي الفرصـة متاحة للجميـع والطريق قاصداً إليها فإنه لا يكون هناك تمييز لثنائية على أخرى بل يتيح فرص السـير المتـوازي أو يبقى الحكم لفـارق الجهد الفردي وخصائص القدرات الفردية وهناك لا ضير من نجاح الثنائيات الفئوية أو الاقليمية وتفوقها على غيرها بحيث لا يسـمح لهذا

www.mtenback.com

التفوق أن يتقاطع أو يتعارض مع نسق المجتمع الواحد وسيره في بناء أطر التشكيل الاجتماعي المناسب ولا يحتجن الفرص لنفسه ويحرم منها غيره. حتى تتحول ثنائيات المجتمع إلى نسيج آخر يظهر فيه التنوع المتكامل غير المتعارض ولا المتناقض. ومن هذا النسيج يصبح حراك المجتمع كله صاعداً يتفاعل مع المعطيات الثنائية ويحولها إلى عوامل إيجاب تصهر الوحدات والثنائيات في التكوين الوحدوي، فيطرد السلبيات في تحركه وصعوده وسموه ويخلق ذاته الخاصة وكينونته الحاضرة مع الإبقاء على وعيه بالماضي الذي يتكيء عليه ويعتمد إدراكه لعامل التغير.

وإذا فشل التكوين الاجتماعي في تجاوز إلحاح الثنائيات واستبدادها واستغلالها فرص الوحدة لصالحها فقد تستمر الوحدة لظروف غير عادية، وتبقى صور من التكوين تخضع لنمط الشمولية القاهرة، وتأتي الروابط لبنية المجتمع مشكلة إطاراً خارجيا مع استقلال كل ثنائية داخل هذا الإطار العام حيث تستشعر خصوصيتها وتميزها وانفراديتها، وتستبطن الشعور المتجافي نحو الآخر، فتدور كل ثنائية في داخل الشكل

www.mtenback.com

الاجتماعي ملتحمة معه بعامل الضبط المكاني وليس بقابلية الاندماج والتفاعل مع الآخرين، وتبقى صورة المجتمع قائمة ما دام الإطار الخارجي للتكوين سليما وقادراً على القيام بمهمة الضبط والتجميع القسري للأشتات والمتفرقات، فلا يسمح أن ينـدَّ منها شيء إلا ضبطه وأعاده إلى مكانه، وهذا الخيار صعب للغاية ويكلف كثيراً ويحتاج إلى قوة ضاغطة ومراقبة واعية تحشر كل وحدة تحاول التفرد إلى الصف وتعيدها إلى التكوين الاجتماعي العام. وقد ينمو الشعور الفئوي وتكثر الدوائر المغلقة داخل المجتمع وتقوى الروابط الخاصة وروابط المصلحة مستغلة هيكل المجتمع العام لتحقيق التميز المادي أو المعنوي، ومتذرعة بحجة الوضع الخاص أو الأفضلية التاريخية أو الذهنية أو العلمية لطائفة من الناس حتى تبرر تفوقها المادي أو الوظيفي أو العرقي على الآخرين، وقد تعرضت كثير من صور التشكيلات الوحدوية في الدول ولاسيما في بعض دول العالم الثالث إلى التفكك والانهيار السريع عندما لم تستطع تجاوز متغيرات التكوين الاجتماعي الحادث الذي حققته الوحدة فاستأثرت فئة من المجتمع

www.mtenback.com

بميزات الوحدة ووجهت إيجابياتها الوطنية لمصلحتها الفئوية أو القطرية والإقليمية وأبقت على شكليات الوحدة مفرغة من مضمونها الاجتماعي وبدأت الميزات الفئوية تتسع في النسيج العام حتى حللته إلى عناصره الأولية، بعد أن أوقفت دمجه وتلاحمه الوحدوي.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الشرق الأوسط ١٤٤٩/١/٥
العدد ٥٥٣١ ١٩٩٥/٧/٢
31 الشرق الأوسط ASHARQ AL-AWSAT

العثيمين يقدم في لندن تجلت في تاريخ المملكة العربية السعودية وتوحيدها

أمة تنهض على عاتق رجل

محاضرات

لندن ـ «الشرق الأوسط»

ألقى الدكتور عبد الله الصالح العثيمين محاضرة بعنوان «لمحات في تاريخ المملكة العربية السعودية وتوحيدها» وذلك في إطار الفعاليات الثقافية التي تشرف عليها الرئاسة العامة لرعاية الشباب والجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون بمناسبة مرور عشر سنوات على تأسيس «كابيميه» الملك فهد في لندن.

قدم المحاضر الدكتور محمد الصميعي مدير المركز الإعلامي السعودي في لندن، الذي تحدث عن مسيرة الحلم التي تتواكب مع مسيرة الأمن والأمان في المملكة العربية السعودية، منتدياً جهود خادم الحرمين الشريفين في تأسيس الإقليمية وتطورها.

في بداية المحاضرة، أشار الدكتور العثيمين الى ميزات كل منطقة من المناطق التي تتكون منها المملكة العربية السعودية. وهنا قائله:

تمثل مساحة المملكة العربية السعودية حوالي 73 في المائة من مساحة الجزيرة العربية وتتكون من مناطق مستقلة كان منها أهميتها الخاصة.

فالحجاز مهوى أفئدة المسلمين أينما كانوا، فإلى بيت الله المحرم يتجهون في صلاتهم، وإليه يأتون لتأدية حجهم، وإلى مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقصدون زائرين ومعتمرين ذات سواحل مشتملة على موانئ نشطة تجارياً، إضافة إلى وجود أماكن زراعية ومعدنية فيها.

وعسير منطقة كثيرة المدن والقرى تشتمل على أراضي تهامة المحاذية لسواحل البحر الأحمر والهضابة تنطوي زراعي وغير جبال السراة التي اصبحت لأن من أماكن الجذب السياحي ويجاورها اقليم جازان بامكاناته الزراعية وأقليم نجران الغني بآثاره.

أما منطقة شرقي البلاد، فتشتمل على اقليمي الاحساء والقطيف. وكانت تفوق زراعياً المناطق الأخرى في البلاد. ومما زاد من امكاناتها الإقتصادية والموقعية على ساحل الخليج العربي، على أن أهميتها الإقتصادية التي لا تضاهى تحققت بعد ظهور النفط في أراضيها.

وأما المنطقة الوسطى من المملكة، أو منطقة نجد، فواسعة الأرجاء، ففيها الإقليم الجنوبي واحات زراعية مهمة. وكان من أبرز مظاهرها جودة مراعيها المناسبة لرعي الإبل خاصة وكثرة تلك الإبل فيها. ولذلك كانت تسمى «أم الميل»، وفيها معادن متنوعة، إضافة الى النفط الذي اكتشف أخيراً.

وتطرق العثيمين الى اوضاع هذه المناطق قبل قيام الحكم السعودي، فقال:

كانت الحجاز رسمياً ولاية عثمانية، لكن أشراف مكة كانوا يديرون شؤونها الداخلية بدرجة من الاستقلال الذاتي. وفوق الولايات العثمانية الأخرى، وكان أولئك الأشراف يتنافسون على الحكم تنافساً يصل، غالباً، الى صراع مسلح. عانى منه السكان المحليون والحجاج على حد سواء ما عانوا من ويلات. وكانت هناك حكاية علمية رمزية تشطة في الحرمين الشريفين، لكن الجهل بالدين كان مع ذلك منتشراً بين عامة السكان، خاصة البادية.

وكان لأشراف مكة نوع من النفوذ السياسي في جهات من منطقة عسير، خاصة في تهامة. لكن النفوذ الحقيقي في هذه المنطقة كانت في أيدي رؤساء القبائل المحليين أنفسهم. أما اقليم جازان فقد نجح الأشراف من آل خيرات ـ وهم فرع من أشراف مكة ـ في الوصول الى خمسة حوالي منتصف القرن الثاني عشر الهجري. وأما اقليم نجران فكان تحت حكم رؤسائه المحليين. ومع وجود حركة علمية في جازان بالذات فإن الجهل العلمي في الاقليمين كان كبيراً، خاصة خارج المدن.

وكانت منطقة الاحساء والقطيف قد دخلت تحت الحكم العثماني بعد منتصف القرن العاشر الهجري لكنها خرجت عن ذلك الحكم عندما استولى بها زعماء قبيلة بني خالد عام 1080هـ/ 1670م. ومع وجود حركة علمية جيدة فيها فإن الجهل الديني كان منتشراً بين عامة سكانها، خاصة البادية.

وانتهى العثيمين في شرح الأحداث التاريخية التي أدت الى توحيد تلك المناطق تحت راية الدولة السعودية الأولى، والثانية، وصولاً الى الدولة الثالثة.

واستعرض المسيرة التي قادها الملك عبد العزيز لتوحيد البلاد، والدفاع عن وحدتها، والتي استغرقت ثلث قرن من الزمن.

وأرجع عوامل نجاح الملك عبد العزيز في تلك المسيرة الى امرين، أولهما صفاته القيادية، وثانيهما الظروف الداخلية والخارجية التي احاطت به.

وزاد ان من اهم صفاته القيادية، ما يلي:

1. تدينه، سلوكاً واعتقاداً، وإعلاماً فكرياً: فقد كان محافظاً على اداء الواجبات والسنة النبوية مبتعداً عن الرذائل الخلقية، وكان يناوئ بالاسلام عقيدة صافية، وشريعة سمحة، وخلقاً مكرماً، وكان لتدين الملك عبد العزيز تأثيره الواضح في التكوين الشخصي والإعلامي الفكري الذي في نفوس اكثرية سكان البلاد، خاصة نجد التي نشأ فيها، وفي اخلاقه التوحيدية.

2. شجاعته الواعية: فقد كان لا يتأخر عن المعارك، لكن كان يقدم اذا رأى الاقدام ضرورياً ومفيداً، ويحجم اذا رأى الاحجام ضرورياً ومفيداً ايضاً. وظل من ابرز مظاهر تلك الشجاعة الواعية انه اذا رأى البداية انه لا يخطط لمعركة واحدة منتهية بمعاناتها مسيرته هزيمة او انتصاراً، بل يخطط لحكم واسع ومستمر.

3. حسن تخطيطه الحربي الذي كان من مظاهره: التموينه على النحو، والحذر منهم فقد كان ينطلق ـ احياناً ـ الى جهة الشمال ـ مثلاً ـ فيظهر الآخرون انه متجه الى بلدة او قبيلة في تلك الجهة، لكنه لا يلبث ان يغير اتجاهه، وينقض على بلدة او قبيلة اخرى قد تكون عكس الجهة المذكورة تماماً. وينك يتحقق له عنصر المفاجأة الذي هو من اسباب الانتصار.

4. قوة الإرادة: لقد انتصر الملك عبد العزيز في كثير من المعارك التي خاضها، وهزم في قليل منها، لكنه عرف كيف يتعامل مع النصر والهزيمة، فلم يدخل النصر الى نفسه الغرور، ومضى عن طريق الصواب، فيبطش بقلول

الملك عبد العزيز

(الصور: محمد متولي فضل)

العثيمين اثناء المحاضرة

1. نجد.

كان من اهم الظروف التي ساعدت الملك عبد العزيز في توحيد نجد الإرث التاريخي. فهو من اسرة اقامت دولة لم تقم مثلها دولة في تاريخ الجزيرة العربية منذ القرن الثالث الهجري، سنة ١٨٧هـ، والتزاما بعقيدة التوحيد الصافية، وتطبيقاً لشريعة الله. ومن الواضح ان اكثرية النجديين، خاصة الحاضرة، قد اصبحوا يكتون مودة وتقديراً لهذه الأسرة تعد ما جنوه على ايدي قادتها الاوائل من فوائد. ولذلك كانوا مستعدين للوقوف مع اي قائد مؤهل ينتسب اليها. ومما يوضح هذا الأمر ان قادة الدولة السعودية الأولى لم يوجهوا سكان منطقة نجد ـ قبل ان يروا فوائد الوحدة ـ الا بعد ما يزيد على اربعين سنة من الكفاح المستمر، لكنهم انضموا الى حكم الإمام تركي بن عبد الله في الدولة السعودية الثانية، خلال عامين، كما سبق ان ذكر. ثم سارعت اكثريتهم الى مساندة الملك عبد العزيز بحدث لم يمر عامان ونصف العام الا وقد دخلت تحت حكمه جميع القرى نجد عدا حبل شمر. ومن المفضل هنا انه لولا ان قوة امن رشيد اعاقت نوعا ما مسيرته لكان انضمام تلك الاقاليم اليه في مدة اقل مما ذكر. ولم يكن لحكم آل رشيد نجداً جذور عميقة، اذ لم يشملها حكمهم الا قبل بدء مسيرة الملك عبد العزيز الموحدة بعشر سنوات. ولم يكن الامير عبد العزيز بن متعب من رشيد، بالذات، ذلك السياسي المحنك الذي حاول كسب الناس بالحكمة.

وفصل العثيمين الظروف التي احاطت بالملك عبد العزيز، وكانت من عوامل نجاحه في مسيرته التوحيدية للبلاد، متأولا الحديث عن توحيد كل منطقة على حدة.

وختم بالاجابة عن اسئلة الحضور التي تركزت على اسلوب الملك عبد العزيز في توطيد الحكم وأسباب انتشار المذهب الحنبلي في نجد.

www.mtenback.com

النخبة بين إدِّعياء الوطنية وممارسة التحيز[1]

أنظر غرباً وأنظر شرقاً وأنظر يمناً وأنظر شاماً، أنظر إلى موطىء قدمي. ثم أعود بنظرة تاريخية إلى مطلع هذا القرن الذي نعيش آخره، فأذكر الماضي كله وأعدد الكيانات والصور الأقليمية التي كانت تهرش أديمه قبل هذا الكيان الواحد فلا أجد بداً من الوقوف مع التوفيق الذي صحب مؤسس هذا الكيان يوم استطاع رصَّ تلك الصورة الهشة وأعادها بناء قوياً شامخاً فكانت مجتمعاً واحداً إن لم يكن هو كل شيء فقد كان شيئاً مهما بالنسبة لنا.

كان من الممكن أن يكون هناك ستة كيانات ضعيفة متمايزة، وأن نكون نحن الذين ننعم بخير الوطن الواحد والأمة الواحدة منتمين إلى تلك الكيانات الستة أو الأكثر أو الاقل.

كان عبد العزيز عظيماً في جمع الشتات وفي انتزاع هذا الكيان من طمع الغريب وجشع القريب فكانت الجزيرة

(١) محاضرة ألقيت في نادي الرياض الأدبي يوم الثلاثاء ١٤١٢/٥/١٣هـ - ١٩٩١/١١/٢٠م.

www.mtenback.com

والدولة والمجتمـع والوحدة فيها هي الرهان الناجح في كفته. ولـم تكن فكرة توحيدها فكـرة فردية آنيـة أو تلقائية بل كانت تصوراً شموليـاً لأسـس الوحدة الكاملة ومضامينها - فتفتقت صـور الانغـلاق الـذي كان يؤمـن به الآخـرون. يقول أسـتاذ كبيـر ومتابـع بصير وناقد قدير في جريـدة الرياض عدد ٩٥٦١ : « كانـت فكـرة الوحدة التي جاء بها عبـد العزيز، وحققها بين مناطق المملكة أكبر من أن تسـتوعبها العقول في تلك الفترة.. وقد تطورت ولكنها لم تتطور بالأفكار المجردة والشـعارات، بل تطورت بالجهد والعمل المتواصل الذي لا يعرف الكلل.. لقد أصبحت واقعاً محسوسـاً تفرضه هذه الآلاف من الأكيال المعبـدة والطرق وهذه الآلاف من الهواتف وهذه الآلاف من رحلات الطائرات النفاثة، كما تفرضه هذه الهجرات المتدفقة إلى المدن من البوادي والقرى الكثيرة».

هـذه صـورة التكوين الحي الظاهـر التي أدركهـا الكاتب أمـا صورة العمل لهذا التكوين فقـد مضت بها الأخبار ونقلتها الأحداث، مما جعل الجزيرة مركز الدائرة الثابت في وقت فقد العالم العربي صورة الثبات على شيء.

www.mtenback.com

وقد كان البناء في الداخل أخطر من قيام سور الوحدة، وكانت قدرات البلاد وإمكانياتها لا تكفى للكثير ولا تلبي تطلعات النظرة الشاملة. فأصبح فتح الباب أمام كل قادر لخدمة الوحدة من أبناء البلاد نفسها أو من أبناء العرب الذين يستطيعون الدفع إلى الأهداف العريضة للدولة وتنمية الدمج المتواصل لبناء الأمة توفيقاً آخر تحققنا لنا نحن الذين نعيش ثمار النجاح الذي حققه المخلصون بوعي لا ينحرف إلى منعطفات الطريق. وقد مضوا وتركوا في أعناق الأمة أمانة السير على أساس الوحدة والصهر لها في كيان يجب المحافظة عليه وألا نختار غيره، وسنزيد فيه ونرفع منه مع مضى الأيام، إلا أنه في حياة المجتمع كما هو الحال في حياة الأفراد تمر ظروف وأحوال يحتاج الناس فيها إلى الالتفات والتوقف والنظر والبحث عن الأفضل عندما يحسون بوضع متردد أو يدركون أن هناك مشكلات اجتماعية تفرض نفسها بقوة أوتعلن واقعاً غير مشروع يتستر بلباس المشروعية، وقد يكون رأي الإنسان في هذه الحال من غير المستحسن طرحه، ولا من المرغوب إعلانه. لكنه قد يحتاج إلى رفض، قناعته الشخصية عندما

www.mtenback.com

يرى أن الخطأ يسـتهلك الحياة كلها ويستهلك نفسه ويستهلك مكاسـب المجتمع التـي دار عليهـا هدف التوحيـد وعن هذا سـيكون حديثـي هذه الليلـة، وقد يكون فيه بعـض الصواب ، وقـد يكـون فيه غير ذلك، وقـد يوافقني بعضكـم وقد يختلف معي آخرون، وقـد يرى بعضكم إن الأولى بمثل هذا الحديث أن يكـون حديث مجلس مغلق، وقد يرى غيرهم أن مكانه هذا المنبر إذ تجتمع وجهات النظر وتختلف أيضـاً.

أما ما أظن أننا لانختلف عليه هو أن الحديث عن الواسطة (وهـو موضوع هذه المحاضرة) يحتـاج إلى محاضرة بل إلى محاضرات إن لم يكن يستحق دراسات اجتماعية موسعة، ولا أظـن أن في هـذه البلاد ظاهرة تسـتحق من الاهتمـام والتفكير والنظر والتحليل والاسـتقراء ما تستحقه ظاهرة الواسطة لأنها أصبحـت حديث الناس اليومي والأمر الـذي لا يختلف اثنان على أنه واقع، ولا يسـتطيع غض الطـرف عنه بنو نمير ولا بنو عامـر، وهو واقع معـاش في مجتمعنـا، اختلطت فيـه الحقيقة والخيال، وأمسـى المجتمع ضحية هاجس الواسـطة المؤثرة في ذهنـه، مما رتـب على ميله هـذا خطأ اجتماعيـاً ومفهومـاً

www.mtenback.com

دلاليـاً مؤسـفـاً، وسـلوكـاً لا نريد له أن يستشـري في مجتمعنا مـع بداية خطونـا نحو الأفضل والأقوى، لا أريد أن أسترسـل في دائـرة السـرد البلاغي والمعنـى الأدبي للحديـث، بل أريد الوصول بكم إلى مناقشـة القضية من جوانبها المختلفة بعد أن أسـتأذنكم في الدخول إلـى حصنها ومعاينـة آثارها وما يترتب عليها من أشياء، وما أسباب قبولها في مجتمعنا على الرغم من عملية الطرد العكسي.

ما الواسطة وما هذا الحديث عنها إذن؟

تحـدث عن الواسـطة عدد كثير من رجـال الفكر والأدب وأسـاتذة الجامعات والوزراء ووكلاء الوزارات ورجال الدين وعلمـاء الاجتماع وعامة الناس. ولأني سـأعتمد اعتماداً كليـاً في هـذه المحاضرة علـى آراء هـؤلاء جميعا وسـأنقلها بأمانة إليكـم مشـيراً إلى مصادرهـا. فإني سـأحدد ما أريـد الحديث عنـه في الواسـطة التي أعنيهـا، لأن بعض الذيـن نقلت آراءهم كانوا يعممون الحديث تعميمـاً واسـعـاً لا يتحقق فيه التعريف الجامـع المانـع كما يقـول الأصوليون. ويخلطـون خلطـاً بينا بيـن مثـل وأعـراف اجتماعيـة راقية لا يسـتغني عنهـا مجتمع

www.mtenback.com

إنسـاني كريم، وبين سـلوكيات مغلقة مظلمة لا يجب أن تبقى في مجتمع يحترم نفسـه ويؤمن بالعدل والمساواة ويطمح نحو كمال صورة الأمة.

فقد وصفت الواسـطة مثلا، بأنها الشـفاعة، وإصلاح ذات البين، وتسـهيل الإجراءات الإدارية في بعض القضايا، وانجاز ما يتعلـق بمصالح الناس لدى الموظفيـن، ورفع حاجة من لا يسـتطيع رفع حاجته إلى من يستطيع المساعدة في قضائها، بل وصفها بعضهم بأنها مساعدة المريض في علاجه والضعيف في قضاء حاجته. فجعلوا هذه المثل الاجتماعية شيئـًا من الواسطة وتحدثـوا عنها هربـًا من حرج السـؤال الذي يلح على كشـف أسـباب الواقع المفروض على المجتمع. وقد تردد السؤال في كثير من المناسـبات دون أن يلقى جوابا شافيـًا لاسيما إذا كان موجهـًا إلى أحد دعائم البروقراطية.

(نعود مرة أخرى إلى السؤال عن ماهية الواسطة)؟

هل هي إصلاح ذات البين كما يزعمون؟

هل هي إنجاز أعمال الخير للآخرين كما يجب أن يكون؟

www.mtenback.com

هل هي تسهيل الإجراء الإداري للناس كما يقولون؟

هل هي رفع حاجة الضعيف للمساعدة في قضائها؟

هل هي اكتشـاف المواهـب والقدرات الخاصة للشـباب وتقديمها للناس لتأخذ مكانها في دائرة المجتمع؟

هل هي علاج المريض ومساعدة المحتاج؟

هل هي شيء مما ذكر هنا أو قريب منه أو مشابه له ؟

يقـول القاموس: إن الواسـطة هي الباب، وهـذا الحد نراه يتفـق مع كل ما سـبق ذكـره، ولكنني في هذه الليلة سـأرفض تعريف القاموس وسـآخذ بتعريف الناس لأن ما أريد الحديث عنـه ومـا أراده الذين سـألوا عن الواسـطة والذيـن كتبوا عنها والذين أثاروا الحوار بشـكل أو بآخر حولها، هو شيء آخر هو المحسـوبية وهو المحاباة في فرص العمل وهو الواقع الجديد في بنية المجتمع الذي بدأ يمارس في مؤسسـاتنا العامة بشـكل صارخ مكشوف.

وإذا كان بابا كما يقول القاموس فهو الباب الذي لا يملك مفتاحـه إلا رجـل أو رجـلان في كل مؤسسـة عامـة ولا يعرفه

www.mtenback.com

ولا يدخـل منه إلا المحسـوبون والأقرباء ومن توجب الحميّة رعايتهم وهو في الحقيقة السـلم الذي يأخذ سـالكيه إلى القمة دون تجربة الخطو الطبيعي والسير المألوف.

ولهـذا فإن حديثي عن الواسـطة أينمـا ورد يعني المحاباة أو قل يعني المحسـوبية ويعني تخصيص المشاع وهو يعني في النهاية الانطواء الذاتي والشـعور الفئوي ويعبر عنه ما نشـاهده مـن صور انغلاقية، بدأت تظهر وتكبر وتتسـع حتى احتاج إلى الصوت السـاكن والهمس المسـتتر، ثم المناقشـة المكشـوفة لهـذه الظاهرة على جميع المسـتويات وفي مختلف الأصعدة، وأن تتمخـض المناقشـات عـن جـدل منتظم حول الأسـباب والدوافع إلى ذلك.

أما ضررها وخطأ ما يحدث فليس موضع جدل أو خلاف، والآراء التـي طرحت مجمعة على حدة الظاهرة واسـتفحالها وعلـى أنه لا يجب السـكوت عنها، ولكنهـا اختلفت في تعليل الأسباب فانقسمت إلى رأيين: الرأي الأول ندد بها وبمرتكبيها وطالـب بإيقافها حالا وعمد إلى فضحهـا بصراحة دون تردد. أمـا الـرأي الثاني فـكان يقر بخطر فشـوها ووجودهـا كظاهرة

www.mtenback.com

يجـب أن تعالـج، والقائل بهذا الرأي يشـعر بضـرورة البحث عن أسـباب يتمنى أن تكون مقبولـة أو معقولة على أقل تقدير تبرر حدوثها بمنطق لا يخلو من تكلف في بعض الأحيان، وقد تبنـى هذا الرأى فئة مـن كبار الموظفين الذين تقل شـجاعتهم عن مواجهة الخطأ ولا يسـهل عليهم الاعتراف به ولا يجدون سـبيلا إلى تجاهل ما يحدث ولا الإقرار به في حين تبنى الرأى الأول بعـض الكتاب والمفكرين وأسـاتذة الجامعات وعلماء الإدارة وبعض رجال الصحافة البارزين وأهل الرأي المستقل، فشرحوا الظاهرة وحللوا أسبابها، وبحثوا عن حلول لها ودعوا إلى معالجتها، وطلبـوا إيقافها عند حد معقول، وعدوها خللا اجتماعيـاً لا يجب أن يسـتمر، ولـم تخل آراء هـذا الفريق من طـرح واع لمسـتقبل الأمـة إذا لـم تتـم معالجـة هذا السـلوك الإداري ليقـف عند حـد معين. وكان في لغة الطرح شـيء من النقد الـلاذع والعتاب وضـرب الأمثلة التي تجسـم فداحة ما يرتكب. يقول أحد الكتاب وهو رئيس تحرير صحيفة سعودية واسعة الانتشار في الداخل والخارج (الرياض، عدد ٥٩٧٤):

www.mtenback.com

لم ينس الشعب الأمريكي من أين جاء :

« لا أفهم أبداً كيف أبيح لنفسـي مثلا لو كنت مسـؤولاً في دائرة ما، أن يكون طاقم المساعدين حولي أو المهمين في دائرة العمـل هم من أبناء مدينتـي أو قريتي القديمة أو الذين تربطني بهـم تجاذب قرابة أو صداقة، وبهـذه المقدمة أصل إلى رفضي التام لتلك الدوائر الضيقة التي تجمع الناس في مجالات العمل أو الصداقـات ولا أتصور أنه انتماء ينم عن شـمولية الولاء لو سـمح الإنسـان لنفسـه في إشـعاره لزميله المواطن الآخر بأنه معـذور في تقريـب من يأنـس للهجتـه أو ينتمـي لمدينته على حسـاب إهمال الكفاءة المجردة التي تفـترض منا احترامها ما دامت تحمل هوية المواطنة».

ثـم يتناول الكاتب التناقض العجيـب بين الارتقاء العلمي والفكري وخطأ الممارسة لدى هؤلاء المعنيين فيقول : « أليس من الجاهلية العصرية أن تكون شـهادات اكسفورد والسربون وهارفارد تكريسا ممجوجًا لذلك الانغلاق الذاتي» .

ثـم ينهي رأيه بقولـه : « إنه لا يزعم أن الشـعب الأمريكي نسـى مـن أيـن جـاء ولا أن الشـعب السويسـري والألمـاني

www.mtenback.com

وغيرهما نسوا التقسيمات الأقليمية التي شغلت أوربا سنين عديدة ولكن هذه الشعوب عرفت أن هناك وطنا يدينون له بالولاء ويرتفعون إليه من وهدة الاقليمية المؤلمة».

ومثل هذا الرأي رأى آخر وضع له عنوان كبير أصدقكم القول أنه وقف شعر رأسي عندما رأيته (الرياض، عدد ٦٠٢٠).

الدولة وإقليمية النخبة :

تناول الكاتب تحت هذا العنوان موضوع المحاباة والمحسوبية في الجهاز الإداري للمؤسسات العامة وتحدث عن مخالفة هذا السلوك لمبادىء الوحدة العامة وخرقه خرقاً صارخاً لحق المسؤولية وأمانتها وحقوق الوطن، فقال : « غير أن ما ينبغي الوقوف عنده هو كيف نستطيع موازنة بعض التصرفات الإدارية التي تحكمها أمزجة خاصة ذات طبيعة إقليمية أو قرابية أو صداقية نشهدها في كثير من المؤسسات العامة، وبين الموقع الذي تحقق لنا كمجتمع توحيدي أصبح لاسمه رنين في العالم.. كيف نتصور زيداً من الناس يقوم بتصرفات جده أو جد جده يوم كانت الأقاليم متطاحنة

www.mtenback.com

والجهـل مسـيطراً، في حيـن يحمـل صاحبنـا في ذهنـه أحدث النظريـات في علـم إدارة المجتمـع والتنمية، إن هـذه الظاهرة لجديـر بالمؤسسـات العلميـة المتخصصـة الوقـوف عندها، بـل إصدار توصيـات عاجلة وفعالة تبدأ بإبطـال مفعول نظرية المـزاج الخـاص التي يتـذرع البعض بهـا في اختيـار العناصر لمسـاعدة المسـؤول في إدارة الجهاز الذي يديره، فقد اسـتغل البعض هذه النظرية اسـتغلالا خاصا في حين أن إعطاء الفرصة للمسـؤول في اختيـار العناصـر التـي يشـعر أنها قـادرة علميـاً وعمليـاً على مساعدته جاءت لتمنع أي تدخل خارجي لفرض ما لا يريده المسؤول، بيد أن البعض لم يستوعب هذه الحقيقة في إطار معطيات الوحدة الحقيقية».

ثـم يمضي يفند الواقع المر حتى قال : « إن الدولة أتاحت للمواطنين كلهم التعليم والفرص كالماء والهواء غير أن بعضنا لم يكن في مستوى أمل الدولة التوحيدي في جَعْلِ الفرص متاحة في إطار الوطن الواحد لا في إطار الاقليم أو المدينة أو الحارة.

وكمـا ترون فقد أنحى الكاتبان باللائمة على فئة اجتماعية خاصـة هم أصحـاب الصلاحيات مـن كبـار الموظفين الذي

www.mtenback.com

درسوا في أوسع بلاد العالم ديمقراطية وأكثرها روحًا تسامحية وكأن التعليم لم يغير سلوكيات هؤلاء، بل زادهم قدرة على تنظيم أفكارهم المتخلفة بصورة تضفي عليها مسحة القبول حتى صارت شيئًا منظما. ولا مقارنة بين سلوكهم وسلوك آبائهم، فسلوك آبائهم كان فوضى صارخة مرفوضة لسوء ممارستها وكان واقع آبائهم يفرض ذلك السلوك. أما هؤلاء فقد كان تعليمهم وتأهيلهم الذي جعلوه وسيلة حديثة لتنظيم الممارسة نفسها بأسلوب إداري منمق يقيم الحجة ضدهم. وإلا لما أصبح خريجو الجامعات المشهورة أكثر انغلاقًا من آبائهم، والفارق هو أن آباءهم لم يتسنموا قيادة الأمة ولم يمهد لهم الوطن المتسع والمجتمع الحضاري ولو حصل ذلك لما عملوا على تكريس الشريحة والأخذ بمبدأ القرابة. أما أبناؤهم فقد وجدوا الوطن الرحب والأمة المتسامحة والمجتمع الواحد فأصبح من السهل عليهم أن يتسنموا بشهاداتهم رؤوس المؤسسات العامة التي تخدم الأمة ويبنيها المجتمع فيحولونها بصلافة إلى خلية خاصة لأبناء قريتهم وأهل رحمهم موهمون أنفسهم بأنهم يبرونهم ويصلونهم

www.mtenback.com

ويعطفـون عليهـم. وهـم في مقابـل ذلـك لا يأبهـون بحرمان الوطـن كله من قـدرات أبنائه عندما يحرمون الآخرين شـرف خدمة الأمة والمشاركة في أداء الواجب نحو الدولة والمجتمع أيضـاً. يقـول أحد الكتـاب (الرياض. عـدد ٧٢٥٣) في مقالة ملئت سخرية لاذعة لهؤلاء « تعبان أفندي شخصية ذلك الذي إذا تسـلم زمام إدارة خاصة أو عامة راح يجمع أبناء أسـرته أو بلدته فيضع كل واحد منهم على رأس عمل فتنقلب المصلحة أو المؤسسـة إلـى عزبة خاصة، ومـع هذا يتبجـح ويقول أمام الملأ: نعم أنا أجمع جماعتي وأقربهم وخيركم خيركم لأهله. حتـى الحديث الشـريف زوره جهـلا أو تجاهلاً ونسـى أن بر الأهل والأقارب هو في العطف عليهم ومسـاعدتهم ورعايتهم وليـس بإحلالهم محل الكفاءات الممتازة وقد لا يكون لديهم من الاسـتعداد والمؤهلات والقدرات والخبرة غير قربهم من سعادته وقدرتهم على التأثير عليه من خلال الأهل والأقارب، ولهذا تجد عمله ضعيفـاً وضائعـاً بين حانا ومانا».

هذا الكلام الساخر المتهكم بالواقع الذي يفرضه أصحاب الصلاحيـات الاداريـة على مجتمعنـا يعد وثيقة إدانـة حقيقية

www.mtenback.com

للممارسة باسم النظام وباسم الاختيار للمصلحة العامة وهو في الواقع تكريس للمرفوض من شكليات التعامل غير العادل بين الناس. الذي تجاوزته النظرة الشاملة منذ خمسين عاماً، أي قبل أن يولد.. وليس شخص تعبان أفندي رجلاً بعينه ولا رجلين أو ثلاثة من أصحاب الصلاحيات وإلا لهان الأمر وقوي الصبر وعدوا من الشواذ على القاعدة الذين لا يعتد بهم، لكن أصبح كل منهم ذلك الرجل، ولهذا فإن اللوم لا يتوجه إلى ذات معينة ولا تبحث أسبابه مرتبطة بهذا أو ذاك، بل هو توجه عام سار عليه الجميع قناعة أو محاكاة للآخرين وترعرع في ظل التسامح الأبوي الذي أولاه أولو الأمر لكل أبناء هذا المجتمع، والرفق الأخوي الذي عرفه الناس وتعاملوا به على هذه الأرض قبل أن تبدأ ممارسة الخطأ الذي فرض نفسه بشكل اصطلاحي جديد أو مفهوم وافد مع صور البيروقراطية الحادثة، فأصبح لا يجد أحد حرجا من ممارسته بل لا يشعر بأنه يفعل خطلا نتيجة لشيوع الظاهرة واستفحالها حتى ظن بعض كبار الموظفين أن هذا هو المطلوب وهو المرغوب، فقال في وسيلة إعلامية ، ما يقرؤه الناس فيصعق منه الذين لم

www.mtenback.com

تلوث أحاسيسهم مزالق التجاوز، يقول الرجل عندما سئل عن المحسوبية والمحابة: (الجزيرة، عدد ٥١٢٥):

الغريب والقريب :

« إذا تسـاوى الغريـب والقريـب فإنني بصراحة سـأفضل القريـب، وهذا مبدأ من مبـادىء الإدارة الحديثة ... فقد وُجد أن فرص نجاح العمل تكون أكبر عندما تكون الدائرة المحيطة به – بالمسؤول – من أقاربه».

لقـد كان الرجـل صريحـا الصراحة كلها، عكـس ما يرى زملاؤه يفعلونه دون أن يعرق لهم جبين، باسم الإدارة الحديثة وباسم الصلاحيات المخولة وباسـم خدمة الأمة وتنمية روح الترابـط في المجتمـع. وهو في الواقـع تمييز واضح فقد قسـم أبنـاء الأمة وأهل الوطن إلى غريـب وقريب في رأي النظريات الحديثة التي سـمع عنها الرجل وأشـار إليها. وحتـى إذا قبلنا جـدلاً مـا يقولون فإننا نجـد أن لكل واحد من هؤلاء شـركاته الخاصـة وأعماله التـي يديرها بجانب عمله الرسـمي، وليس فيهـم من اسـتعان بأبناء عمـه وأهـل قريته في إدارة مؤسسـاته الخاصـة. بـل كان اعتمادهـم على الكفـاءة المتميـزة من غير

www.mtenback.com

الأقربـاء وهذا يدحض مـا يزعمون من أنهم يقربـون معارفهم لمصلحـة العمل ولنجاحه. وأعمالهـم الخاصة التي يختارون لهـا أهل الكفـاءة والخبرة من أبعد الناس عنهم تشـهد ببطلان هذا الادعاء الباطل .

اختزال الوطن :

ولكنني مع ذلك كله لا أتهم الوعي العام بعدم الادراك لما يرتكب ولا أستطيع وصفه – أي الرأي العام – بالسهو أو الغفلة لأن الرصد كان واعيا والمتابعة قائمة والنظرة الشـمولية دقيقة وكان التنبيـه يواكب المخالفات الإدارية مشـيراً إلى منطلقات أقـرب إلى القبول وأجـدر بأخلاق مجتمعنـا. إلا أن الاصرار علـى اسـتمرار وجـود الظاهـرة المزعج قـوى بقـوة العناصر المسـتفيدة لأنها استغلت روح التساسـح والجبلة التي جبلت عليها الجماعـة. ومن بوادر الادراك الواعي لخطأ الممارسـة ما جاء على إحدى صفحـات جريدة (الرياض، عدد ٦٨٤٩) تقـول : « فأنت تدخل مبنـي إدارة حكومية أو قطاع ما.. لتجد فريقـا كامـلا يديـرون العمل هم مـن ... أبناء الحـارة وزملاء الأمـس وأصدقاء الطفولة وقد احتلوا مواقع متميزة في التركيبة

www.mtenback.com

الوظيفية دون سواهم لا لشيء إلا لأن هؤلاء على مقربة خاصة من القائم على هرمية العمل. إن هذه الظاهرة أصبحت متبلورة في قطاعـات عديـدة وبشـيوعها المرعب سـوف تهـدد حقائق تعـارف عليهـا الناس في العمـل والإنتاج وخدمـة المجتمع.. غير أن هذه الظاهرة إن تركت فسوف تقوض الايجابيات لأنها تختـزل مفهوم الوطن إلى وحدات صغيـرة هي وحدة الاقليم أو القرابـة أو الحارة وذلك ضد منطق العصر والتقدم والتاريخ والمجتمع المتجانس».

التعصب للإقليمية :

وإذا تجاوزنـا نطاق الملاحظات اليومية للصحافة وكتابها فإننـا سـنجد الرصـد والادراك الواعـي الذي يسـتمد التجربة ويسـتقرىء التاريخ ويسـتنتج مـا وراء الظاهرة وقد شـارك في هـذا التوجـس كاتب كبير في سـنه وتجربتـه وفي عمله، مارس حـق التوجيه وأدى أمانة الكتابة بإخلاص قبل أن يعرف الناس ظروف استغلال المواقع الإدارية وواجبات القرابة فيها، وقبل أن يُعـرف التحايـل اللطيف علـى النظام. فأخـذ الظاهرة التي نعرضهـا هذا المسـاء على أنهـا بلغت من البغـض والخطورة

www.mtenback.com

ما جعلـه يتناول في حديثـه إلى رموز الميـل الاقليمي مرجعية تاريخية، ويشـير بـذكاء إلى ما يمكن أن يكـون فيه عذر وما لا يمكن أن يعذر مرتكبوه فقال : (الرياض، عدد ٦٨١٤).

« ليس مما يسـتحب أن نسـتنكر التعصب في شخص ما أو في شـريحة من المجتمع يتنامى في مشـاعرها الاعتزاز بالقومية العربية وغالبـًا ما يكون السـبب رد فعل لسلسلة من الأحداث وتطوراتهـا على امتداد مراحل من الزمن اسـتوعبها التاريخ... لكـن يبدو أن الظاهرة أنواع منها التعصب للاقليمية المحدودة الضيقة. هذا النوع من « الشوفنية» هو الذي أتوجس وأتحسب لوجوده وشيوعه في نفوس شرائح من الشباب في المملكة وقد أسـتغنى عن التحديـد بالنسـبة للاقليم أو عن التعيين بالنسـبة لأعمـار هذه الشـرائح.. لأن تنامى الظاهرة وانتشـارها لم يعد يفتقر إلى هذا التحديد والتعيين».

ثم يواصل حديثه في تشريح ما يقع تحت عينيه حتى يقول: «والمؤسـف بل المنذر بما يتعارض مع الأسس التي قام عليها الكيـان في المملكـة هو أن الحبل متروك علـى الغارب بحيث أصبح من المألواف أن تعلن « الشـوفنية» عن نفسـها بمناسـبة

www.mtenback.com

وبـلا مناسـبة في التعامـل بيـن الأقـران.. إذ تبلغ « الشـوفنية» الإقليميـة الضيقة حـد الاصرار علـى التعبير عن نفسـها». ثم يسـير الكاتب قليلا إلى تفصيل الأضرار التي يراها تسـير على خط أعوج ولكنه يسـتدرك شـيئًا مهما وهو أن هذا الخطل لا يعبر عن رضى أصحاب الشـأن فيقول : « وللانصاف، والتزام جانـب النظـرة العادلة، يمكن القـول: أن الدولـة إذا كانت لم تلجـأ إلى الأخـذ بزمـام المبـادرة، لمقاومة هذه « الشـوفنية» الاقليميـة الضيقـة، فـإن السـبب هـو اعتمادهـا المطلق على الأسـس القوية التي قام عليها الكيان وهي أسس كانت عبقرية المؤسـس الملك عبد العزيـز- رحمه الله-، قـد وضعتها من منطلقيـن، هما عقيدة التوحيد بكل مضامينها الخالدة أولا، ثم دمـج أو صهر جميع أقاليم المملكة في بوتقة خرجت منها هذه السـبيكة الفريدة التي يجب أن يتعذر أو يستحيل أن يتميز فيها إقليـم عن غيره بأي خصيصة من خصائص التميز... ومن أهم أنجح الوسـائل التي يفترض أن تكون لهـا القدرة على مقاومة أي اتجـاه شـوفيني إقليمـي لا أجد مـا يمنع مـن أن أصفه بأنه بغيض، وخطير إلى الحد الذي لم يعد يحسـن السـكوت عليه

www.mtenback.com

... ولنتصـور على ضوء هذه الحقيقة مـاذا يمكن أن يتمخض عنه التعلق بهذه « الشـوفنية» التي لا أشـك بأنها آخذة في النمو السـريع، والانتشـار الأسـرع الذي لا أزيح السـتار عن سر إذا قلت : إنه أصبح حديث المجالس في البيوت».

وإذا كان الاشـفاق والخوف من بـوادر مقدمات الظواهر التـي تقع بين أيدينا جعلا الرجل الذي بلـغ الثمانين من العمر يخشى نتائج المقدمات الخاطئة فإنه يجدر بنا نحن الذين نواجه نتائجهـا المطروحـة أن نعلن رأينـا ونعلن رفضنا واسـتهجاننا للسـلوك البغيـض كما وصفه الكاتب. ولا أريـد أن أنتقل بكم إلـى الرأي الآخر بعد أن عرضت آراء للكتاب والأدباء قبل أن أختمها برأى أستاذ لعلم الإدارة في أعرق جامعاتنا ورأيه نأخذه لأنـه رأى متخصص في هذا الحقل وهـو مفكر وأديب وكاتب أيضـاً، يقول : (اليمامة، عدد ٩٣٠).

المحسوبيـة :

« المحسـوبية ظاهـرة غيـر محمـودة لكـن المنطـق وراء ظاهرة المحسـوبية النظيفة إذا لم يكن في الامكان القضاء على هذه الظاهرة بسـبب معطيـات مجتمعية وقيم سـائدة... ذلك

www.mtenback.com

أن المحسـوبية كظاهـرة تتغاضى كثيـرا عن اعتبـارات القدرة والمعرفـة والفعاليـة في سـبيل تمكيـن ذوى القربـى والصلـة والعلاقـات الاجتماعية من أن يتسـنموا وظائف ربما كانت في مسـتويات إدارية عليا ومحصلة ذلـك معروفة، فهى انخفاض في الأداء وقهر المجدين من الذين لا تنطبق عليهم الاعتبارات وراء المحسـوبية، وتدن في عطاء الجهاز أو المؤسسة، وسجل يحتل الفشـل فيه مسـاحة كبيرة إن لم تحتل المسـاحة كلها... ذلـك أن عـدم شـعور الأفراد بـأن المعيـار المتحكـم إليه هو معيـار الكفاءة والقدرة والفعالية فإن عطاء المجدين المبعدين بسـبب تغلب المحسـوبية لـن يكون عطـاء جيدا ولـن يكون لديهم الحماسـة للعمل والمثابرة علـى أدائه على أفضل وجه وقبل ذلك وبعده لن يكون لديهم الشـعور بالانتماء والارتباط بالجهاز أو المؤسسـة... ومفهوم المحسـوبية يرسـخ التجزئة والفرقـة والاختلاف داخل الكيان الواحد وهو من خلال ذلك قـد يحبط الجـد والاجتهـاد والاخلاص في العطاء لـدى الفئة القـادرة على ذلك، إذ إن المحسـوبية منحت الفرصة لمن هم أقـل قدرة لأنهم من الذيـن تنطبق عليهم معاييرهـا وأطرها...

www.mtenback.com

والمحسـوبية استشـرت استشـراء كبيـرا وكادت أن تكون أو أصبحـت عملا مشـروعا وتوجها مقبولا، وممارسـة واضحة للعيـان، ولو تقصينـا الوضـع في أي كيـان إداري لبرزت دون حاجة إلى التقصـي وإن كان بروزها في بعض الأحيان صارخا وفي أحيان أخرى أقل بقليل من ذلك».

هـذا رأى الكاتب في المحسـوبية النظيفة كما يسـميها أما رأيه في غير النظيفة فلا أستطيع نقله إليكم.

وبعد ،

فقد سبق الحديث عن الواسطة في نظر رجال الفكر والأدب وأسـاتذة الإدارة وأهـل الرأي الذين يرقبون السـلوك الإداري ويستقرئون الواقع الذي بدأ يتجاهل عملية الدمج والاستمرار عليهـا وصهرهـا في بنيـة اجتماعية واحدة كمـا لاحظوا جنوح التطبيـق الاداري الحادث ومجافاته لأسـس التكوين الوطني المتفـق عليه، ممـا ينتج عنه بعض الآثار المسـتقبلية التي لابد أن يكـون للفعـل غيـر الواعي الذي تباشـره بعـض الفئات رد فعل واع قد لا يسـهل هضمه بعد حدوثه ولا تسـهل السـيطرة

www.mtenback.com

عليه، وقد بدأ يواجه المشكلة ويمارسها قطاع آخر قد لا يكون مقتنعا بها ولكنه يشهد منها صوراً يومية ويتعامل معها سواء كان تعامله عن قناعة أوأنه كان منساقا معها انسياق الترس في حركة العجلـة الآلية، عليه أن يـدور بدورتها حتى لا يقع مطحونا بين أضراسـها. ونخشى أن يدور الناس كلهم هذه الدورة الخاطئة في الوقت الذي تكون مصلحة المجتمع أقوى على مخالفتها.

الرأي الثاني :

أمـا الـرأي الثاني فـكان لكبـار الموظفيـن الذيـن تناولوا الظاهرة وتحدثوا عنها وأقروا بخطورتها وأشـاروا إلى ضررها ووصفوهـا بأنهـا داء يعمـل في جسـد الأمة عمل السـم وعلى الرغم من ذلك فإن نغمة هؤلاء شابها شيء من التبرير لحدوث الظاهرة، وهو في طبيعة الحال تبرير لابد منه بالنسـبة لهم لأنهم طرف في القضية، وطرح السؤال أمامهم هو في حقيقته تعريض بهم أو اسـتهزاء غير مباشر بسـلوكهم، ولهذا كان التبرير جزءا مـن الدفـاع عن النفس ولابـد أن يحدث عندهم إسـقاط على العالم الثالث أو ما يشـابه ذلـك، لقد طرحت إحدى الصحف السـعودية سؤالا عن المحسـوبية وأثرها في المجتمع ووجهته

www.mtenback.com

إلى مسؤول كبير (عكاظ، عدد ٨٠٢٠) فكان من رده : « إن مظاهر المحسوبية وعدم وجود الضوابط الصحيحة لتقويم الجهد وتقدير الكفاءة متفشية في معظم بلاد العالم الثالث ... والطبيعي هو أن يجد الموظف الحوافز المادية كلما أثبت كفاءة في عمله وكلما أثبت تميزا في أداء واجبه ... ثم أشار إلى أهمية تنمية الحوافز الدينية لدى الموظف... وأوضح أن الموظف إذا استقر في وجدانه الحافز الديني فهو إنما يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى باتقان عمله وزيادة كفاءته مؤمنا بأنه إذا لم ينل حظه المادي في الدنيا فسوف ينال الأجر والثواب عند المولى في الآخرة، ولا شك أن هذه الخواطر الإيمانية في ذهن الموظف تدفعه إلى مضاعفة إنتاجيته دون انتظار للحوافز المادية التلقائية».

كلام جميل لو كان الموظفون لا يعرفون أن العمل للدنيا غير العمل للآخرة ومن يعمل في الجهاز الذي يتحدث هذا المسؤول عنه وغيره من مؤسسات الدولة يعرفون أن هناك طريقًا للجنة وللآخرة طريقا غير طريق الوظيفة. أما الوظيفة فهي عمل للدنيا وإن احتسب المؤمن فيها عمله فهو يحتاج

www.mtenback.com

المقابل والمردود العاجل، ولا نعرف شريعة في الأرض يعمل فيهـا الإنسـان وتجيز الحوافز في الدنيا لغيـره ويحال أجره إلى الآخـرة، وقـد ينعكس الأمـر ويطالب الموظفون هـذا الرجل المسـؤول بـأن تنمو في ذهنـه هو الخواطـر الايمانيـة وتدفعه إلى العدل والمسـاواة فهو فرد واحد يسـهل تطعيمه بالخواطر الايمانيـة وإلزامه بها حتى يتجنب هـو وزملاؤه التجاوزات في تخصيص الحق المشـاع للأمة وقـد جاء في الحديث الصحيح الذي هو مصدر الخواطر الايمانية ما رواه أبو علي عن حذيفة مرفوعـاً أيما رجل استعمل رجلا على عشرة أنفس وفي العشرة من هو أفضل منه فقد غش الله ورسـوله وجماعة المسـلمين» وعن عمربن الخطاب فيما رواه الشـيخان قال : « من ولي من أمر المسلمين شيئـاً فولى رجلا لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين».

مسـؤول آخر وإداري مؤهل حشر في السؤال عن الواسطة (الجزيرة، عدد ٤٨٠٥)، فقال :

« الواسـطة ظاهرة سلوكية إنسـانية لا توجد في شعب دون آخـر وإن تفاوتـت درجاتهـا وآثارها من مجتمع لآخر حسـب

www.mtenback.com

اختـلاف أنمـاط العلاقـات الاجتماعيـة السـائدة، وحيث إن عدم دقة وشـمولية الأنظمة وقواعد العمل يفسح المجال أمام الموظـف بـل يشـجعه على تفضيل شـخص على آخـر أو فئة على أخرى، كمـا أن الغموض في الأنظمـة والتعليمات يؤدي إلى ترعرع الواسـطة أو المحسوبية كما يصطلح على تسميتها أحيانـًا، كمـا أن مسـتوى التنظيـم الاداري والرقابـة الإدارية يؤثران بشـكل كبير على انتشار الظاهرة أوعدمه، إذ يصعب في ظل التنظيم السـليم والرقابة الواعيـة المخلصة قيام الموظفين باتخـاذ قرارات أو أعمـال مبنية على اعتبـارات غير اعتبارات المصلحـة والنظـام ... ولكـن كما هو الحـال في المجتمعات التقليديـة المترابطـة تصبح الواسـطة قيمـة اجتماعيـة مقبولة ومطلوبـة اجتماعيا حتى بين المتعلمين الذيـن بدلا من التأثير الايجابي للقضاء على الظاهرة أو التقليل منها فإنهم يخضعون لتأثيرها ويتأثرون بها».

يظهر أن النظام في رأي الموظفين مسؤول عن التجاوزات الإداريـة لعدم دقته، ولأنه كما يقولون ليـس فيه تحديد يعتمد عليـه وهـو بطبيعة الحـال تبرير معقـول، إلا أن الذي يسـتفيد

www.mtenback.com

مـن النظـام غيـر المحدد هم أصحـاب الصلاحيـات من كبار المسـؤولين في الدولة الذيـن أعطاهم أولـو الأمر صلاحيات واسعة رغبة في تحقيق منطلقات عريضة تفترض حق المشاركة وتقوم على الأسس المتينة التي رسخوها وعملوا على صيانتها والمحافظة عليها وتركوا التفاصيـل الدقيقة لأبناء الأمة الذين سيمارسـونها يوميا، وكان الواجب على هؤلاء المسؤولين أن يدعوا المؤهلين علميا وعمليا لمد الأسس المثالية التي حرص المخلصـون على نموها في كل قطاعـات المجتمع دون النظر إلى مواضعـات اجتماعية محدودة وقيم سـائدة مرفوضة وقد أثبتت تصرفات كبار الموظفين فشلهم الذريع في تحقيق الغاية فحاولـوا الاسـقاط على النظـام. والنظام ليس قرآنـا وفجواته ليست عذرا ومن السهل ، بل من الواجب على كبار الموظفين كتابة النظام طبقـا للمتغيرات الحادثة مع التطور ونمو الحاجة إلـى الجديد وتأهيل الأجيال حتى لا يكـون هناك عذر يحمل على أكتاف النظام.

لقد انتقلت بلادنا في السـنوات الماضيـة نقلة رائدة في كل مجـالات الحيـاة التعليميـة والعمرانية والاقتصاديـة ونما مع

www.mtenback.com

ذلـك الوعي العام كمـا نمت روح المشـاركة في خدمة الوطن لـدى كافة فئات المجتمـع وقد حاولت الدولـة جاهدة متابعة حركة النمو والتطور مع الحياة بصفة عامة لكي تفسح المجال المتـكافىء والفرص المتسـاوية للقادرين علـى خدمة الوطن، وقد نجحـت في ذلك وتجـاوزت المخانق الضيقة بشـيء من الرضا عن النفس.

والإنسـان على هذه الأرض بنشاطه الذهني والفكري هو أغلـى مـا فيها وهـو العنصر الرائـد وقد نال نصيبه مـن اهتمام الدولـة وحظـى بتنميـة مداركـه ومواهبه، وشـحذت ملكات الابـداع والعطاء لديه وفتح سـبيل التعليم أمامـه حتى تأهلت غالبيـة فئاته تأهيـلا علميا وتهيـأت للقيام بدورهـا كاملا، ولا شـك أن من طبيعة البشـر التفـاوت، كما أن مـن طبيعة حركة الحيـاة التفاعل الاجتماعـي والتطور وعدم الثبـات. وقد كان لبعـض فئـات المجتمع سـبق إلـى العمـل الإداري فوضعت لنفسـها ميـزات إداريـة نتيجة ظـروف خاصة تهيـأت لها دون غيرها في السابق، فأرادت المحافظة عليها في الحاضر، وسبب هذا أن بلادنا مرت بظروف وسنوات طويلة كانت فيها الكفاءة

www.mtenback.com

الإداريـة الجيـدة نـادرة وكان البحث منصبا على من يسـتطيع أن يعمل ولو بأدنى درجـات الكفاءة والندرة الإدارية، ونتيجة لهذه الحاجة فإن شـرائح اجتماعية قليلة كانت قد نالت قسـطا من التعليم أفضل مـن غيرها فكان من الطبيعي أن تكل الدولة إليهـا مهمـات إدارية كبيـرة، وأن تعمـل على تنميـة القدرات العلمية والفنية الأخرى لتعدها للمشاركة فشمل اهتمام الدولة قطاعـات المجتمع السـعودي كلها لتهيئتهـا لدورها في الحياة العامة، حتى لا يكون الاعتماد على شريحة اجتماعية محدودة، ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت أجيال تسـاوت في التعليم والتأهيل من جميع فئـات المجتمع ووجدت الكفاءة الإدارية الممتازة في كل تلك البيئات ومن كل الشـرائح الاجتماعية بل أصبح أكثـر المتعلمين المؤهلين القادريـن على العطاء الجيد في الجيـل الحاضر هم من أبنـاء القطاع الكبير الذي تأهل على أسس علمية حديثة.

وقـد اتسـعت قاعدة هـذا القطـاع. عندئذ شـعرت بعض الفئـات التي كانت قد وصلت إلى قمة الهرم الإداري بتضاؤل حجمهـا العـددي أمـام التوجـه العام نحـو العمـل في الدولة،

www.mtenback.com

وازدياد تطلع الكفاءات الجديدة للمشاركة في بناء الوطن.

فأسرعت إلى استغلال أسبقيتها ومواقعها الإدارية المتقدمة لصالح أفرادها حتى تحتفظ بميزاتها القديمة. فاستخدمت فنيات البروقراطية للابقاء على مكاسبها الإدارية بحكم سبقها إلى مواقع التأثير وتهيئة القرار واتخاذه لصالحها. فكان ما يسمى بالاختيار على مبدأ الكفاءة مدخلا واسعا وجده هؤلاء سبيلا يجعل مبدأ القرابة هو الأصل في الاختيار.

وحين واجه المجتمع في السنوات الماضية تطورا جوهريا وبعد أن ذابت فوارق التعليم واستوى التأهيل عندئذ عملت الفئات القليلة المتمكنة على تحوير هذا التطور لصالحها وبدأ الإداريون التنفيذيون يهيئون القرار ليخدم أغراضهم، فظهرت المحاباة وبدأت تأخذ مكانا بازرا في مواقع العمل القيادي وأتيحت الفرص الوظيفية العليا لأبناء هذه الفئة ومحسوبيها خاصة دون غيرهم، مما أحدث تكدسا رهيباً لفئات محدودة في بعض المؤسسات العامة وأصبحت مكانا خصبا لنمو هذا التكدس غير المرغوب.

www.mtenback.com

إن ميـزة بلادنـا وميزة نظامهـا الإداري قيامهـا على نظرية انتقـاء الكفـاءة الإدارية لتعمـل في خدمة الوطـن، ودعما لهذا المبدأ منحت الدولة كبار المسـؤولين فرصة اختيار معاونيهم مما يأنسـون بأدائه وقدرته على العمل معهم تحقيقا للمشاركة الوطنية لخدمة المصلحة العامة، ومحاولة اكتشـاف المواهب الجديدة الشـابة دون تمييز، لكن ظهر عجزهم- مع الأسف - عن حسن الاختيار العادل والانتقاء للكفاءة وللقادرين من أبناء الأمة في مؤسساتهم التي يشـرفون عليها وانحصرت جهودهم في الاختيـار لمعارفهم ومن يلوذ بهـم لمعاونتهم ووضعهم في مراكـز القيادة في المؤسسـات العامة التي تحـت إدارتهم حتى أصبحت كل مؤسسة عامة صورة لتكتل فئوى محدود.

لقد وضـع ولاة الأمـر وعلى رأسـهم خـادم الحرمين أن تطلعـات الدولة هو بنـاء الأمة ورفع وعـي المجتمع وتأصيل روح الانتماء القوي للوطن وتحقيق المشاركة في خدمته وعدم تكريـس الانتماء للشـريحة الاجتماعيـة أو الاقليميـة تحقيقا لمبادىء العمل الرائد الذي قام به مؤسس هذه البلاد في توحيد الأمـة وصهرهـا في بوتقـة الدين والكيـان الواحـد والمجتمع

www.mtenback.com

متـكافىء الفـرص إلا أنه من المؤسـف أن المحابـاة أصبحت ظاهرة تفرض نفسـها في كل المواقع، وأصبحنا نجد صورا من التكتل الذي يخدم مصالح معينة وشرئح مخصوصة.

وإن نظرة سـريعة إلى الوظائف التي يتم شـغلها بالترشيح تؤيـد وجود إقليمية الإدارة الأمر الذي لا يخدم ما يسـعى إلى تحقيقه المخلصون من أبناء الأمة.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

نظرة عامـة

إن نظرة واعية ولو سريعة إلى ما أدركناه واقعـاً منذ ثلاثين عامـاً [1] أو تزيد حين كنا مجتمعا قليل السـكان، قليل التعليم، متواضـع الإمكانات إلـى قفزة هائلة في عدد سـكانه تجاوزت كل المقاييس العالمية للنمو، وقفزة تعليمية تجاوزت الحدود المعهودة ونسـب التطور المتعارف عليها عالميا، واتساع أكبر حتى مـن خيال التصور في حجم المدن، إن كل ذلك ترك آثاراً كبيرة في طبيعة التطور ومتطلباته وما يهمني منه في هذا العرض هو الإنسان ابن الوطن الذي حدث كل ذلك منه وله ومن أجله.

التحـول :

ولقـد تابعت باهتمامي كله منذ عشـرين عامـاً حين عدت من الدراسـة عام ١٩٨٢م حركة ما يحدث من تحول وتغير في بنية المجتمع السـعودي وعلاقاته وصلاته، وعوامل التأثير فيه وعليـه، في ماضيه الذي سـبق هذين العقدين، ومـا أصابه بعد ذلك من تغيرات وتطورات أثرت تأثيراً كبيراً في بنائه، وفي رؤيته

(١) ١٤١٢/٥/١٣هـ ١٩٩١/١١/٢٠م.

www.mtenback.com

وفي تفكيـره بل وحتى في سـلوكه وفلسـفته مؤسسـاً ذلك كله على دراسـات ميدانية موثقة تناولت الأسـماء والمسؤوليات والمواقع في كل مرفق حكومي.

الإنسـان :

ولأن الإنسـان على هـذه الارض بنشـاطه الذهني وفكره هـو أغلى ما فيها، وهو العنصر الرائد في حاضرها ومسـتقبلها، فقـد نال أغلب أبناء الوطن نصيبهم من التعليم وحظي الجميع بتنميـة مداركهـم وشـحذ مواهـب العطـاء لديهـم، وصقلت ملـكات الإبـداع بالتعليم والتأهيـل، وفتح السـبيل أمام فئات المجتمع السـعودي كلـه حتى تأهلت فئاته تأهيـلاً يمكنها من المشـاركة النافعة في خدمته، والقيام بدورها في نهضته إلا أن ما لا يخطئـه النظر أن الجانب النظري لم يلامس التطبيق العملي في واقع الحال ولم تحصل المشاركة العادلة للقادرين من أبناء الوطن على خدمته وشرف الإسهام في نهضته، وذلك للأسباب التالية :

السبب الأول :

الفئة والمجتمع :

إن فئة قليلة العدد في المجتمع السعودي سبقت إلى مواقع

www.mtenback.com

العمـل الإداري فجعلها تضع لنفسـها ميزات إداريـة متقدمة، نتيجة ظروف تهيأت لها خاصة دون غيرها في السابق حين كان القـادرون من أبناء الوطـن والمؤهلون منهـم قليلين، فأرادت الفئـة قليلة العـدد المحافظة على ميزاتهـا الماضية في الحاضر الذي صار مختلفـاً.

السبب الثانـي :

التمـيز :

حدث هذا التميـز لهذه الفئة في الماضي حين كانت البلاد تمـر بظروف كانت فيهـا الكفاءات العلمية قليلـة والمدربة في الإدارة أقـل من القليـل، وكان البحث منصبـاً على من يعمل ولـو بأدنى درجة من الكفاءة، وقـد كانت هذه الفئة في الواجهة فحصلـت على شـيء مـن بدايـات التعليـم وأعطـى لبعضها اسـتثناءات كثيرة من شـروط التأهيل العلمي لشغل المناصب العليا في الجهاز الإداري، وكان من الطبيعي أن يوكل إلى هؤلاء مهمات إدارية وأن يعتمد عليهم في تسـيير دفة العمل الإداري. وعندما شـعرت هـذه الفئة بمـدِّ التعليم إلى كل أبنـاء الوطن، ونمو القـدرات العلمية المؤهلة الأخرى مـن غير أبنائها ومن

www.mtenback.com

خارج محيطهـا الاجتماعي، والفئوي، أو العائلي والأسـري، والإقليمي أسـرعت إلى اسـتغلال سـابقتها في العمل القيادي ومواقعها الإدارية المتقدمة لصالح أفرادها خاصة، واحتفظت بميزاتهـا القديمة، واسـتخدمت فنيّـات البيروقراطية للإبقاء على مكاسـبها بحكـم تمكنها من مواقع التأثيـر وإبعاد غيرها، وعملت علـى تهيئة القرار واتخاذه لصالحها. وكان ما يسـمى بالاختيـار على أسـاس الكفاءة مدخلاً واسـعاً لصالح القرابة والمنفعة والفئة القليلة، مثلما كان الاستثناء من المؤهل قد هيأ لها في السـابق ميزة خاصة كرسـت حظـوظ الفئوية والإقليمية التي اسـتغلته هذه الفئة في مرحلة اختلال التوازن التعليمي بين بعـض مناطق المملكة وسـكانها في الماضي، فدفعـت به إلى أبعد حدٍّ واستأثرت بالفرص المشاعة بين الناس.

السبب الثالـث :

الواقع المختلف :

حين واجه المجتمع السـعودي كله في السـنوات الماضية تطـوراً مهمـاً توفرت فيـه الكفاءة والمؤهلون مـن جميع فئاته ومن كل أبنائه، وذابت فوارق التعليم واستوى التأهيل للفئات

www.mtenback.com

الأخـرى التـي كانت أكثر عـدداً، عندئـذ عملت الفئـة القليلة المتمكنـة علـى تحوير التطور لصالـح أفرادها، وبـدأ الوزراء والقياديـون منهم يتخذون القرار الذي يخـدم فئتهم، فظهرت المحاباة وبـدأت تأخذ مكانـًا بارزاً في مواقع العمل القيادي في كل مرفـق، وأتيحت فـرص المشـاركة في الإدارات العليا لهم ولمحسـوبيهم خاصـة دون غيرهـم حتى تحـول كل مرفق في هرمـه الأعلى إلى رابطـة قرابية وإقليمية حـادة لا يمكن غض الطرف عنها ولا تقبل نتائجها.

الواقـع :

ولأن هذا كله يخدش حقوق المواطنة وفرص المشـاركة للجميع في بناء الوطن الذي ينتمون إليه، ويهز **المساواة والعدل المطلوبيـن** بين أبنـاء الوطـن الواحـد، ويحرمه قـدرات أهل الكفاءة مـن أبنائه الذين لا ينتمون إلى هـذه الفئة أو تلك، فإن عـلاج ما يحدث وما حدث في الماضي، وتدارك ما قد يحدث في المسـتقبل، هو **ما تطمـح هذه الورقة إلـى توضيحه بالأرقام والأشخاص** والأسـماء بعد دراسـة علمية قامت على إحصاء دقيق لمراكز التكدس الفئوي وتأثيره على ما يحصل **من تمييز**

www.mtenback.com

بين الناس فيمـا هو حق للجميع، وقد تكررت الدراسـة مرتين الأولـى عام **١٤١٢هـ** حيـن قامت بالإحصاء لأسـماء الوزراء وكبار المسـؤولين في كل وزارة وشملت موظفي الدولة الذين يشـغلون المناصـب التي يصـدر بتعيين شـاغليها أمر مجلس الـوزراء والذين يعينون بناء على توصية الوزير المختص، وقد كانت نتائج تلك الدراسـة ٧٥٪ لفئة محددة من إحدى مناطق المملكـة و ٢٠٪ لمنطقـة أخـرى بينمـا بقـى ٥٪ موزعة على جميع مناطق المملكة وسـكانها وأبنائها وكانت عينة الدراسـة سـتمائة. ثم تكررت الدراسـة للنموذج نفسه في **١٤٢٣هـ** على أمـل أن يكـون حدث في بحـر اثنى عشـر عاما مـرت تغيير أو انفراج في شـغل الوظائف العليا يقلل حدة الفئوية ويسـتجيب للمتغيـر التعليمـي والديمغـرافي الـذي يفرض نفسـه بقوة إلا أن النتيجـة جـاءت مخيبة للآمال حيث أظهـرت زيادة انغلاق الفئة الأولى واسـتئثارها بما تستطيع لشريحتها الضيقة وكانت النتائـج كالتالـي ٨٥٪ في الحاضر من الوظائف العليا تشـغلها الفئة الأولى ١٠٪ تشغلها الفئة الثانية، بينما بقيت نسبة ٥ ٪ لكل أبناء الوطن بمناطقه وسكانه، مع ارتفاع عدد عينة الدراسة من

www.mtenback.com

ستمائة في الدارسة الأولى إلى ألف ومئتين في الدراسة الثانية.

ثم كرست الفئة القليلة المستفيدة من الوضع القائم هاجس الحذر في التمثيل للمناطق والقبائل لكي تبقي على الوضع الذي تحقق لها وتبعد من سواها من المشاركة وقد بالغت وضخمت الحذر والخوف من مبدأ المشاركة على أساس التمثيل الجهوي والقبلي بينما التمثيل المناطقي قائم منذ قيام الدولة والأسماء التي تتكرر في كل وزارة وإدارة تدل عليه، فعدد من المقاعد الوزارية في الحقيقة تخصص لأسماء من حاضرة الحجاز وعدد آخر يخصص لأسماء من حاضرة نجد أو الأحساء فقط وكأن المملكة هي هذان الاقليمان وهذه الأسر وليس غيرهما.

النتيجة :

والنتيجة بكل وضوح وصراحة هي اختزال شديد للوطن وقدرات أهله في فئة من أبنائه الذين لا يغمز بكفاءتهم ولا يُطعن في قدراتهم، ولا يُشك في ولائهم وإخلاصهم، ولكنني أزعم أن من أبناء الوطن الذين لا يقعون ضمن هذه الدائرة الضيقة من هو مثلهم في الكفاءة والقدرة والولاء والإخلاص،

www.mtenback.com

وأن الوطن للجميع، وأن الفرص يجب أن تكون للجميع حتى لا يشـعر القادرون الذين لا ينتمون إلـى الفئة القليلة بالإقصاء والتهميش والحرمان، كما هو حادث اليوم.

مؤشر غير مريح :

إن هذا المؤشر يجعلنا نفكر في حاضرنا المختلف كلياً عن الماضـي الذي قبلنا فيه الوضع القائـم وأبرز وجوه الاختلاف بين الحالين :

١. فقـد كان الجميـع في الماضـي يجـدون الوظيفـة وفرص العمـل متاحـة لـكل الناس في أدنـى الدرجات من السـلم الوظيفي، وهذا خفف شـعور التركيز على التكتلات العليا في سـلم الوظيفة العامة وألهى الكثـرة عمّا تمتعت به القلة من مزايا مادية ومعنوية كبيرة.

٢. لم يتبلور لدى الأكثرية شـعور بتمييز فئة عن أخرى، وكان ينظر إلى الأمر على أنه يحدث في حدود الممكن المعقول من الأشـياء وضمـن اجتهادات فردية، أو حتـى إقليمية في حدود المحتمل وكان السكوت عنه مرحلياً لاشك بذلك.

www.mtenback.com

٣. لم يكن الانغلاق شديداً يلفت نظر الناس إلى مثلما وصل إليه الآن من الفئة التي جمعت بين الانغلاق الفئوي والتزمت الإقليمي وتصنيف الناس وإقصائهم.

الحاضر :

لا شك أن ما يحدث صار ظاهرة لا يمكن تجاهلها للأسباب الآتية :

١. حاجة الناس في كل مستوياتهم إلى البحث عن الوظيفة ولو صغرت، كشف واقع الحال أمامهم وذلك حين يجدون أن على قمة كل مرفق عام فئة قرابية خاصة تصنع لنفسها سياجاً من التكتل والانغلاق وتبرُّ أبناء فئتها بما تستطيع تحصيله بحكم مواقعها حيث يزكي بعضهم بعضاً ويثني بعضهم على بعض، وترعى مصالحهم بمعزل عن مساحة الوطن وسكانه.

٢. كثرة المؤهلين والقادرين من عامة المواطنين وشعورهم أنهم لا يحصلون على فرص متساوية مع زملائهم من أبناء الفئة نفسها وأن تأهيلهم العلمي وقدراتهم لا تقدر بقدرها.

www.mtenback.com

٣. نمو المنافسة الشديدة بين الناس وارتفاع الوعي بقيمة المشاركة وأهمية ذلك معنوياً للذين تتحقق لهم فرص المشاركة وشعور الإحباط للذين توصد في وجوههم الأبواب.

٤. نمو الشعور الإقليمي والتصنيف الثنائي بين الناس الذي كان مسكوتاً عنه في الماضي، وقوة الحديث عن المكاسب التي يحققها أصحاب النفوذ ويحرم منها الوطن ومواطنوه، وقد أصبح الأمر هو حديث المجالس والناس، وسيتمخض عن موقف مزعج إن لم يُسارع في علاجه.

بين الماضي والحاضر :

وإذا كانت ضرورة التوازن في الماضي بين فئتين صغيرتين قليلتين من أبناء الوطن قبل خمسين عاماً قد أوجبت التدخل من قِبل ولاة الأمر بما يسمى الاستثناءات لصالح **إحدى الفئتين حتى قام التوازن الواجب قيامه** بينهما في حينه، فإن الحاضر أشد إلحاحاً للتدخل لصالح المجتمع السعودي كله ضد استئثار الفئة القليلة بكل الفرص والإمكانيات المتاحة التي صارت أثرتها تمسَّ الثوابت الأساسية للحقوق العامة والواجبات وأثر

www.mtenback.com

ذلك يتضح في النقاط التالية :

١. إن شعور الكثيرين بأنهم خارج دائرة الاهتمام سيضعف تماسك الجبهة الداخلية لأبناء الوطن.

٢. تشكيل رأي عام يعارض هذه الميزات والأثرة للقلة من الأكثرية المحبطة التي قد تجد أكثر من طريق للتعبير عن هذا السّخط والإحباط.

٣. ظروف المرحلة التي تمر بها بلادنا والعالم من حولنا يدفعنا إلى التماسك الداخلي، ويلح على فسح المجال للقدرات والكفاءات من كل أبناء الوطن خارج دائرة الفئة ذات المصالح.

٤. إن هذا الاستئثار يتعارض مع توجيهات القيادة إلى الإصلاح الإداري والنظرة إلى الجميع على أنهم سواء في الحقوق والواجبات.

www.mtenback.com

وفـي النهايـة:

أولاً:

المملكة قارة كبرى وسـكانها بضخامة حجمها من العدد والتعـدد والاختـلاف والتكامل ويجامل بـل يخالف الحقيقة مـن يقول: إنهـم على رأي واحد، ومن طبيعـة الناس اختلاف المصالـح والأغـراض والتغلـب ولذا قيـل: لو عـدل الناس لاستراح القاضي.

ثانيـاً:

في كل أمة تتعـدد الاتجاهات الفكرية والمذهبية وتختلف المصالـح وهـذا التعـدد والاختـلاف لا يمـس الحقـوق والواجبـات ومن غير المعقول تجاهل هذه الحقيقة أو إغفالها كما هو الحال اليوم.

ثالثـاً:

أغلب سـكان المملكة فئة عمرية شـابة وذلك أمر يتطلب وعيـاً متقدماً وإحاطة دقيقة لمتطلبات هـذا النوع من الناس، ويجب دراسـة كيـف يفكـرون وكيف ينظـرون للأمـور التي يعيشونها والأخذ بعين الاعتبار المتغيرات في حياتهم لاسيما ما

www.mtenback.com

يتعلق بالحقوق **والواجبات وضرورة** المساواة في ذلك. ولا شك أن هنـاك تفاوتـاً كبيراً بين أبنـاء الوطن الواحد في هذه الحقوق مع الأسـف الشـديد وهناك شـعور حي وقوي بهـذا التفاوت والمطالبة بإصلاحه لا تزال في طور الضمور والاستتار .

رابعـاً:

التعليـم الـذي حظي به أبنـاء مجتمعنـا كان عامـلاً مؤثراً بطريقـة تفكيرهـم كمـا كان باعثـاً في نفوسـهم إلـى التطلـع المشـروع لحقوقهم وواجباتهم والاعتراض على التمييز الذي تحظى به فئة صغيرة منهم، ولا شك أن الناس أصبحوا يحسون إحساسـاً قويـاً بما يرونه من أثرة القليل من الناس على الكثير دون سبب مقبول لهذه الأثرة.

خامسـاً:

التغير في الداخل والخارج في الخمس عشرة سنة الماضية كبير جداً ومن المسـتحيل ألا يكون هـذا التغير قد عمل عمله في النفـوس وأثر في المناخ العام الذي يعيشـه المجتمع وخلق تصورات لها فعلها في سـلوك الناس مع بطء آليات الاستجابة الصحيحة للمتغيرات الاجتماعية التي لا يمكن تجاهلها.

www.mtenback.com

سادسـاً:

أمـام هذه العوالم التي هي حـراك اجتماعي طبيعي في كل حـال وقف أصحاب المنافع الخاصة موقف الإقصاء وموقف التجاهـل والتهميـش المتعمـد لغيرهـم وغلبـوا مصالحهـم واسـتغلوا مواقعهـم المتقدمـة في الإدارة التنفيذية وأبعدوا من لا ينتمـي إليهم مكانـاً أو نسـبـاً، ونتيجة هذا كله تدني مسـتوى الأداء الوظيفي وغياب الشعور بالتنافس البناء الذي يحفز على الإنتـاج الصحيح، وهذا سـبب الاعـتراض المعلن والصامت على هـذه الحال مع تجاهـل الواقع الاجتماعـي والديمغرافي للتركيبة السكانية للمملكة.

سابعـاً:

إنه من المؤسـف أن يبلغ الأمـر هذا الحد من الانغلاق ثم لا يكون هناك محاولة صحيحة لتوسيع الدائرة والانفتاح على كل فعاليـات المجتمع السـعودي بدل الاعتماد على شـريحة ضيقة من أبنائه.

الـرأي:

إن في كل مجتمـع مؤسسـات مثـل النقابـات والهيئـات

www.mtenback.com

والأحزاب تفرز بطبيعتها ما يسمى الطبقة الوسطى التي يعتمد عليها المجتمع في خياراته عندما يريد أن تتسع دائرة المشاركة الفاعلة وتتحقق العدالة لكل فئات المجتمع ومن هذه الطبقة تأتي القيادات العليا التي تمثله، أما نحن - كما هو معلوم - فإن الطبقة الوسطى أتت عن طريق الوظيفة العامة العليا (الوزراء ونواب الوزراء شاغلي المرتبة الممتازة ومن في حكمهم) وهؤلاء يأتون في بلادنا عن طريق الاختيار لشغل هذه المواقع وقد انحصرت الخيارات لهؤلاء حتى اليوم في الفئة القليلة السابق ذكرها التي جاءت من أسر **متناسبة ومن قرى متقاربة واصبحوا** هم الذين يدعون للإدارة وللوزارة ويستأثرون في التجارة، مما همش المجتمع ومناطقه وقبائله وأوقف حراكه الطبيعي السليم.

في النهاية:

إننا أمام خيار المجتمع كله، وليس خيار الفئة التي تحقق وجودها على حسابه وتكرس مصالحها بمعزل عن الواقع الذي يعيشه الناس ويرجونه **من العدل والمساواة في الحقوق والواجبات**، وخيار المرحلة ومتطلباتها، وحسم الأمور بما

www.mtenback.com

يصلـح الخلل الذي حدث، ويعيد للمجتمـع توازنه الطبيعي، وأمنـه الاجتماعـي، وخيـار تشـكل الوعـي العـام والـرأي النافـع التماهي معهمـا والاسـتجابة للمتغيـرات الديمغرافية والجغرافية.

كيف :

وأقـرب الطـرق إلـى ذلك هـو مدُّ النظـر إلـى كل مناطق المملكة وإلى كل سـكانها واختيار القيادات العليا على أساس الكفـاءة والقدرة مـن جميع أبناء الوطن ووضع الأسـس التي تضمن الاستفادة من المؤهلين القادرين من أبناء الوطن وأهله.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الخلاصــة

إن الانتماء للهوية الوطنية الذي نتحدث عنها في هذا البحث لم يعد قضية يختلف عليها أو يجادل عنها وإنما حلت في مكان قصـي من ثقافتنـا الحاضرة وحل مكانها في الصـدارة المعهود الثقـافي الذي كنا فيه قبل زمن الدولة وقبل قيام الوحدة بل قبل اختراع الهوية الوطنية، والسـبب هو التعلق بانتماءاتنا القديمة والرجـوع إلى الوراء واسـتظهار الماضـي وتوظيفه للحاضر، ذاك هـو الذي عرقل عمل الهوية وأضعف الاعتماد عليها ولن تجد الهوية الوطنية مكانـًا في النفوس والأفئدة مادامت الذاكرة تعيش الماضي بكل صوره وأبعاده وتستعيده وترتكس إليه وما دامت الحقوق غير متساوية والواجبات غير محددة.

إن الـذي يكرس معنـى الهويـة الوطنية ويجعـل لها قيمة هـي منظومة الحقـوق التي تحققهـا لحامليها وهي الأسـاس الذي تقوم عليه صلات الناس وتتحد فيه أشخاصهم ويستوي التعامـل بـه بينهـم . وأهم ذلك كلـه هو المسـاواة بين كل من يحمـل الهوية والعدل فيهم والحرية الشـخصية التي يتمتع بها

www.mtenback.com

كل فـرد ممن يحمل هوية الوطن وينتمي إليه، ويصبح الجميع أمام حالـة واحدة وشـخصية اعتبارية واحدة حتـى تكون هي الرابطة الأساسـية التي لا ينتمي المرء إلا إليها ولا ينتسـب إلا بنسـبها وحدها ويلتزم بحقوقها وواجباتها عندئذ يكون للهوية معنى يعرفه الناس ولها قيمة يدركون دلالتها ويحافظون عليها.

نخلص من هذا كله إلى أن الهوية التي يسعى المصلحون إلى تأسـيس مبادئهـا في النفوس ومع الناشـئة يعترض طريقها إلى نفوسهم طرائق شتى منها:

العصبية الإقليمية الحادة التي أصبحت ظاهرة للعيان.

العصبيـة القَبَليـة التـي اسـتثيرت بنـوازع الغلبـة والأثـرة واسـتبد بها الحرمان والشـعور بالتهميش الاجتماعي فارتدت إلى عصبيتها القديمة لتجد فيها ما يعوضها عن ما تشـعر به من الإهمال والتجافي.

العصبيـة المذهبية والفكرية التي عرض البحث بعضـًا من مبادئها وأمثلتها وهـي ظاهرة مروعة حين تأتي من أهل الظاهر الإسـلامي الذيـن يقتدي بهـم النـاس ويقلدونهم ويسـتمعون

www.mtenback.com

إليهــم بما يحملون في طواياهم من معاني البعد والانغلاق على ثقافة تميز الناس وتفرق بينهم وتحيل إلى موروثات اجتماعية وترتكس إلى مواضعات مرَّ زمنها ومضى أوانها إلا أن جذوتها بقيــت في أعماق هــؤلاء فأبرزتها الظـروف المواتيـة وأوقدتها المنافـع المبتغاة فظهـر في طوايا فكرهم ما وصفـه الله في كتابه العزيز « إن الإنســان ليطغى أن رآه استغنى» وهي طبيعة بشرية عندمـا يرى المرء أنه يؤتي حظه وافراً وقسـمته مع الناس تامة. ثــم لا يفسـر ذلـك إلا باختلافه عـن الآخرين وتميـزه عليهم. وهذا هو ما جعل بعضهم ينظر إلى الهوية التي نتحدث عنها في هـذا البحث أنها قد تجمعه مع العامـة أو توجب عليه المعادلة والمشاركة بما لا يرى أن يشاركه أحد فيها أو يعادله.

عصبيـة المصالح والمكاسـب، لم يختلـف الناس في كل تاريخ البشرية على شيء كما اختلفوا على حظوظهم من الحياة الدنيـا، ولم تقم المنازعات والعداوات بين الناس إلا من أجل هذه الحظوظ. ومما لا شـك فيه أننا في هذه البلاد المباركة قد أصابنا من العصبيات الشـيء الـذي لا ينكر وأن الثراء والوفرة الماديـة التي تمتعت بهـا بلادنا كانت مبعثـاً لعصبية المصالح

www.mtenback.com

وعصبية المكاسب. وقد تفاوتت الفرص واختلفت الحظوظ أيمـا تفاوت وأيمـا اختلاف، والنتيجة المنطقيـة أن يقاتل أهل المصالح والمكاسـب دون مصالحهم ومكاسبهم وأن يبعدوا كل خطر يرونه يهدد الامتيازات التي نعموا بها والهوية الواحدة وحقوقها المتساوية مهدد خطير لمصالح النخب والمتنفذين.

إن ترسيخ الهوية الواحدة الكاملة الشاملة لكل أبناء الوطن هو في حـد ذاته تهديداً لما تمتعت به القلـة من منافع- ونتيجة لعدم تكريـس الهوية الوطنيـة بحقوقها وواجباتها المشـروعة وأهمهـا إتاحة الفـرص المتكافئة للجميع، واختيـار القيادات التنفيذيـة العليـا على هذا الأسـاس-. وبهذا الوعـي، ولذلك السـبب، كان الميل إلى هوية المصالح قبل هوية المواطنة لأن المواطنـة تعني قبول مشـاركة الآخرين لهم فيمـا وصل إليهم مـن منافع ومسـاواة غيرهـم معهم وهـو أمر لا يقـرون به ولا يطيقونـه لأن ما حققـوه في حياتهم أكبر وأهم مـن الانتماء إلى شـكليات في نظرهم لا يؤمنون بها ولا يريدون التقيد بقوانينها، وهـم يدركون أن ما بأيديهم جاء بسـبب بعد الناس عن العدل والمسـاواة فيما هو مشترك ومشـاع بينهم وفيما توجبه حقوق

www.mtenback.com

المواطنة فحرصوا على تحييدها وعملوا على تمكين المنافع الخاصـة. وقـد رغبوا بمـا يحقق لهـم الامتياز علـى ما يحقق المساواة والعدل وواجبات المواطنة وحقوق الهوية لكل أبناء الوطن الذين يحملون هويته وينتمون إليها.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

قائمة المراجع

١- التربية على المواطنية وشروطها في الدول المتجهة نحو الديموقراطية. أدونيس العكره، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
٢- ثقافة الأطفال، هادي نعمان الهيتي، ٣٧، عالم المعرفة، رجب ١٤٠٨هـ، مارس ١٩٨٨م.
٣- ارتقاء القيم، عبد اللطيف خليفة، ١١٤.
٤- انظر ارتقاء القيم، ١١٥.
٥- ثقافة الطفل، ٤٣.
٦- المواطنة والوحدة الوطنية، محمد محفوظ وآخرين، ١١٤.
٧- جريدة الاقتصادية الشيخ عبدالله المنيع، العدد ٥١٩٢ في ٢٠/ ٢/ ١٤٢٨هـ الموافق ٢٩/ ١٢/ ٢٠٠٧م.
٨- ملحق الرسالة، جريدة المدينة الدكتور محمد النجيمي، الجمعة ٣ محرم ١٤٢٩هـ، الموافق ١١ يناير ٢٠٠٨م.
٩- مقابلة مع الأستاذ الدكتور محمد النجيمي نشرت في مجلة نون، العدد ٢٢ ربيع الأول ١٤٢٩هـ.

www.mtenback.com
موقع الدكتور مرزوق بن تنباك

١٠- خصائـص جزيـرة العرب، ٩٤. بكر بـن عبدالله أبو زيد، نشر دار ابن الجوزية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.
١١- جريدة المدينة المنورة أوراق صحفي، جمال خاشقجي، الأحد ٩/ ١١/ ١٤٢٣هـ الموافق ١٢/ ١/ ٢٠٠٣م.
١٢- مقدمـة دليـل الهاتـف الخـاص بأهل نجـد المقيمين في المدينة المنورة.
١٣- مهد الإسـلام البحث عن الهويـة الحجازية ص٣٩، مي يماني الطبعة الأولى ٢٠٠٥، نشر دار الساقي.
١٤- البحث عن الهوية الحجازية، ٤١.
١٥- البحث عن الهوية الحجازية، ٤٤ .

موقع الدكتور مزوغ بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فِهرس

الموضـوع	الصفحة
مقدمـــة	٥
الانتماء الوطني : دراسة للحالة السعودية	٩
الثنائية الكبرى والتكوين الجديد	٥١
النخبة بين إدعياء الوطنية وممارسة التحيز	٨٣
نظرة عامة	١١٧
الخلاصة	١٣٣
المصادر والمراجع	١٣٩
الفهرس	١٤١

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com